٥٠٨

دار م. النحاس

508

HARLEQUIN

عبير

قلوب

aml

www.liilas.com/vb3

ملك الشتاء

أماندا كاربنتر

ملك الشتاء

أماندا كاربنتر

كانت ايفون ترنت النجمة السينمائية الرائعة الجمال في نظر المعجبين، قد حصلت على كل شيء. ولكن للشهرة جانبها المظلم أيضاً. وكانت ردة فعل إيفون لتلك الظلمة هي في الهرب. عندئذ اقتفى ادم ريوارد آثارها وأرغمها على الخروج من مخبئها. وكانت إيفون على استعداد لتقوم بأي شيء لكي تظفر بحب ادم واعجابه. ولكن، هل كان في استطاعته أن يجعلها تواجه مخاوفها الدفينة وتسيطر عليها؟

www.liilas.com

تمهيد

كانت برعم أضواء هوليوود. جدتها كانت ملكة السينما الأسطورية، وكان جدها أكثر منتجي الأفلام سطوة ونفوذاً. وقد اتبع والداها تقاليد الأسرة، وكانت نتيجة جهودهما أربع جوائز «أوسكار» وخمس ترشيحات لها.

عندما كانت في السادسة، ظهرت صورتها على غلاف مجلتي «فوغ» و «هاربر» مع أمها. وعندما أصبحت في العاشرة عمت شهرتها العالم كأشهر عارضة لأزياء الأطفال. وعندما أصبحت في السادسة عشرة، أصبحت مستقلة بثروتها بفضل حكمة والديها في رعاية مكاسبها. في السابعة عشرة تركت عملها في عرض الأزياء لتعمل في أول فيلم لها. وفي التاسعة عشرة هجرت أساتذتها الممتازين. وفي العشرين بلغت إيرادات أفلامها قمة الخمسة أفلام الأوائل في العالم. فازت بجائزة «الأوسكار» واحتلت صورتها غلاف مجلة «تايم». قابلت رئيسي جمهورية وملكات وملوك وأمراء.

ذات صباح، بعد أن حضرت مهرجان «كان» للأفلام، وقفت على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. كانت قد مثلت دور البطولة في ثمانية أفلام، ثلاثة منها كانت في السنة الماضية فقط. وكانت أحداث تلك الأفلام كلها تجري في مكسيكو ولندن ومونت كارلو وجزر كناري والقاهرة ومراكش.

www.liilas.com

عندما وقفت، حافية القدمين، في المياه الدافئة، كان وجهها الشهير الذي لا ينسى، متوجهاً ناحية البحر بينما كانت مدينة «نيس» الفرنسية وراء ظهرها.

كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وكانت المخاوف تتملكها.

لم تستطع أن تتذكر في أي بلاد هي.

هل كانت هي سيليستا أو ماري، اليزابيت، إلواز، رايانون، سارا، ديانا أو إيزابيلا؟

لم تستطع أن تتذكر اسمها الحقيقي.

سمعت نفسها تحدث السماء الصماء بقولها «سأرحل.» وكانت تعني ما تقول.

ثم، حسب ما علمه العالم، إختفت ليطويها الغموض عامين كاملين.

www.lilas.com

الفصل الأول

ما أجمل الغضب.

هدرت سيارة «البورش» وهي داخلة إلى البيفرلي هيلز قادمة من مكان مجهول. لقد عانت كاليفورنيا من الجفاف في السنوات الخمس الأخيرة. ولكن دلائل تلك الكارثة الطبيعية قد توقفت عند الضواحي الشاعرية الجمال، حيث الحقيقة القاسية غير مسموح لها بالتطفل.

كانت تحب أن تشعر بالغضب، وكان هذا الشعور يملؤها بالقوة والحيوية. كانت تستمتع بمذاق الغضب وتستزيد منه رغبة في إبقائه متاججاً في نفسها. إنها لم يسبق لها أن عرفت إنساناً يقتات على الغضب مثلها هي. ربما كان هذا انطباعاً طبيعياً فيها، ميزة تختص بها. لقد اجتازت مرحلة الحاجة إلى ميزات خاصة، إلى طابع معين يبرز شخصية خاصة بها. ولكنها لم تتوقف قط عن البحث عن ذلك.

توقفت السيارة قبل الوصول إلى البوابات العالية التي سرعان ما فتحت أوتوماتيكياً، لدى ضغطها على زر معين، لتندفع هي إلى القلعة الحصينة صاعدة في طريق رائع الجمال قد اصطف على جانبيه سيارات ليموزين متنوعة الأشكال والألوان. ثم تحولت بسرعة نحو موقف عند منعطف بجانب المنزل.

كان البناء الفخم يشع بالأضواء والموسيقى ويعج بالناس، فقد جاءت متأخرة.

تركت أمتعتها والمفتاح في السيارة، ثم صعدت إلى الأبواب الأمامية. وجمدت الخادمة التي فتحت لها الباب، في مكانها ونظرت إليها بسرور قائلة: «أوه، الآنسة ترنت!»

وكأنما كانت قد خرجت لأمر عارض بعد ظهر ذلك اليوم، ولم تتغيب سنتين كاملتين. قالت للخادمة بلهجة عادية عذبة: «مرحبا يا بيتي. إن أمتعتي في السيارة «البورش» عند المنعطف. هل لك بإحضارها؟»

تركت الخادمة تتحدث بكلام سريع غير مفهوم. لقد كان الناس في كل مكان. في القاعة، وفي غرف الاستقبال، في الطابق الأعلى. وكانوا في ملابس السهرة وجاكتات العشاء، وفي سراويل الجينز الممزقة والفراء والريش. في المجوهرات والعطور. كان كل شخص في هيئة مختلفة، منهم من كان يرتدي بزة خادم المنزل أو المطعم، ومنهم الممثلون، الوكلاء، الكتّاب، المخرجون السياسيون ورجال الأعمال. الزوجات والصديقات عارضات الأزياء، والفنانون، ومتسكعون هنا وهناك.

جالت بأنظارها خلال المكان كنمر يبحث عن فريسة، غير غافلة عن التأثير الذي أحدثه وجودها على هذه الجموع، ولكنها لم تلق بالاً إلى ذلك. واستدار الناس ينظرون إليها بدهشة وحيرة. وسرعان ما سرى الهمس والحديث عنها، كالنار في الهشيم.

تجاهلت موظفي الاستقبال في المركز الرئيسي لتستدير إلى مكتب استقبال خلفي، عبارة عن ردهة كبيرة من الرخام ذات أبواب مفتوحة على شرفة تقود إلى حدائق رائعة

وحوض سباحة. وكان في الزاوية فرقة موسيقى الروك تعزف ألحانها الصاخبة.

مشت نحو الجموع المزدحمة، ثم توقفت، كطير جارح بين الطواويس. كانت هادئة، متمالكة نفسها، بينما كان في استطاعتها ان تمزق هوليوود أجزاء لو شاءت، ولكنها كانت قد تلقت وعداً بأنه سيكون موجوداً هذه الليلة. ولهذا كانت تتفحص الجموع كما يتفحص القائد جنوده في ميدان المعركة.

كانت أمها فيفيان، وهي إمرأة نحيلة الجسم مكتملة الأنوثة، تلاطف رجلاً، قد خطه الشيب، في إحدى الزوايا. بينما كان أبوها كريستوفر رجل طويل القامة، ذو مظهر مميز، يرقص بمرح وكأنما لا يهمه شيء في العالم. وبكلمة أخرى كانا نموذجاً لأسرة من الممثلين.

لا بد أن أخاها دايفيد كان هناك في مكان ما. ولم يكن والداها قد شاهداها بعد، ولكن ذلك سيحدث سريعاً بالطبع. ألقت نظرة على وضعهما، ثم تجاهلتهما لتقع أنظارها على من تبحث عنه. لقد عرفته من صوره التي نشرت ضمن المقالات الصحفية التي كانت تكتب عنه على مدى سنوات.

كان آدم ريوارك رجلاً نحيفاً طويل القامة، أنيقاً رشيقاً، وكان شعره البني القاتم يتألق بحمرة خفيفة، مما جعل بشرته تبدو أكثر بياضاً مما هي عادة. وكانت مشيته المنتصبة، ووسامة الرجولة المتمثلة في تعابير وجهه، كل ذلك كان يجعله يبدو تحفة فنية رائعة. وكان الناظر إلى جماله الصاعق ذاك، معذوراً إن هو تمنى لو أن، هذا الرجل،

لا يطلق العنان لسحر عينيه، غير العادي، ذاك. فقد يشعر بخيبة أمل إذ بدى بين تلك الأهداب الكثيفة القاتمة، عينين رماديتين بلون العواصف الثلجية التي تهب في القطب الشمالي. وكان يشع منهما ذكاء صاعق.

لقد قرع ملك الشتاء باب الصيف الأبدي فانفسح له للدخول. فكان آدم ديوارك مزيجاً من الإثنين معاً.

كان آدم ديوارك متنوع الذكاء، في الخامسة والثلاثين من عمره، ومنتجاً لأفلام اسكتلندية، وممثلاً سابقاً لتمثيليات شكسبير، وقد حصل على مركز المدير منذ ثماني سنوات. وفي السنوات الخمس الأخيرة، اكتسحت أفلامه المتنافسين وحصلت على أكثر الجوائز، بثناء النقاد وحماس الجماهير. لقد أوضح معالم هذه المهنة وأوجد لها أساساً جديداً مما جعل هوليوود المنهكة تنحني له برهبة وإعجاب.

كانت قد سمعت هي بذلك الرجل الأسطورة، طبعاً، ولكنهما لم يتقابلا قط.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة عذبة. ها هما يتقابلان الآن.

وضع أحدهم يده على ذراعها العارية وابتدأ يتحرش بها، فنفضتها عنها جانباً، وابتدأت تترصد فريستها.

لمعت عينا آدم ديوارك وهما تجولان بأنحاء الغرفة وكان يبدو عليه شيء من عدم الإرتياح. ووقعت أنظاره على إيفون، لتستقر برهة وقد ملأه الإعجاب. وكانت هي امرأة شاعرية الجمال، ترتدي سروالاً من الجلد الأسود، وحذاء عالياً دون كعب، فوقه قميص أسود بحمالات

دقيقة. كانت ساقاها البديعتا التكوين بنحافة ساقي الغزال. وكان وركاها وصدرها يظهر روعتهما خصرها النحيل الممشوق وتكوين كتفيها وذراعيها الرائعي الجمال.

كان شعرها الرائع الكستنائي اللون ينسدل إلى وسطها في تجاعيد ملتفة. ولم يكن وجهها رائع الجمال بالمعنى المتعارف عليه، بل كانت وجنتاها العاليتان وفكها الضيق، وأنفها المستقيم وجبهتها الواسعة، توحي بعناد بالغ. ولكن الكاميرا السينمائية كانت تصر على توضيح هذا المعنى. وكان فمها الممتلىء وعيناها الكبيرتان القاتمتان في روعة الجمال.

ولم يكن يظهر على بشرتها الرائعة وجسدها أي زينة أو بهرج. كانت خالية من أي جمال صناعي وكان عدم اهتمامها بمظهرها هذا هو نفسه الذي يجعل لجمالها ذلك التأثير الطاغي.

ما أن التقت عيناها بعينيه، حتى اختلجت أحاسيسها وهي تعود بذاكرتها إلى الأسبوعين الآخرين. كان حاداً صلباً مشرقاً كالشمس عند الظهيرة، وجاءت هي لتكسفه كالظل المظلم الغادر. يا للغرابة لقد ارتفعت قامته الفارعة فوق قامتها البالغة مئة وسبعة وستين سنتيمتراً، فكان عليها أن ترفع ناظريها إلى أعلى.

بدا على جانبي فم ملك الشتاء، نوع من التفكه.

قال آدم ديوارك في صوت ذي نبرة تهكمية: «إيفون ترنت؟ إذن، فقد عاد الإبن الضال أخيراً.»

لم تراجع إيفون نفسها حين وقفت أمامه، بل وضعت

www.liilas.com

كل قوتها في ذراعها لتهوي على وجهه بصفعة مدوية. عنف الصفعة جعلت رأسه يرجع إلى الوراء، كما جعلت ذراعها تصاب بالخدر حتى الكتف. كانت امرأة قوية. وقد أذهلها أن صفعتها لم تلق به أرضاً.

لم يفصح برود ملامحه الجميلة عن النظرة الوحشية التي بدت في عينيه وعمّ الصمت حولهما مساحة سبعة أمتار تقريباً. حيث طغى صوت الصفعة على صوت الموسيقى والأحاديث الدائرة بين الحضور. ما عدا صرخة ضعيفة غير ملحوظة صدرت عن مرافقته الشقراء. لقد أهانته أمام كل هذا الجمهور المتعطش للفضائح.

وبدت علامات الرضى على ملامح إيفون الحادة، وفي عينيها الكبيرتين القاتمتين وهي تحرك يدها ومعصمها، حيث أنها قامت بما جاءت لأجله. استدارت لتبعد عنه، متجاهلة وجوده بنفس اللامبالاة التي ابدتها تجاه كل إنسان وكل شيء منذ عودتها إلى منزلها. وخطت خطوة واحدة فقط.

قبض على ذراعيها من الخلف. ومرة أخرى، ذهلت من القوة الفولاذية في أصابعه الطويلة التي التفت حول رسغيها كالحية، لتجذبهما بحركة مفاجئة. حاولت أن تخلصهما بشراسة، ولكنها نجحت فقط في لوي كتفيها. ودفعها هو في ظهرها، لتسير أمامه، بقوة لا تقهر.

لحظت إيفون، بطرف عينها، اندفاع والديها، فيفيان وكريستوفر، نحوها وقد أصابهما الإرتياع، ولكن ليس الذهول، فقد كانا يعرفان ابنتهما.

قالت لهما إيفون ببرودة بينما كانت مرغمة على

تجاوزهما في سيرها ذاك: «مرحباً، يا أمي وأبي. كيف حالكما؟»

قال الرجل الثلجي لأبيها كلمة واحدة صارمة هي: «إنفراد.»

تردد كريستوفر ترنت للحظة واحدة فقط قبل أن يقول: «إلى الطابق العلوي.»

اجتازا الردهة بخطوات متسارعة. كان الرجل خلفها يقودها بين الناس كما تقاد الدابة الحرون. وضاقت عيناها مفكرة وهي ترى الدهشة بادية على ملامح وجوه من كانا يجتازانهم.

بدا على ملك الشتاء انه قارىء أفكار كذلك. إذ أنه همس في أذنها بصوت ناعم ينذر بالخطر: «حاولي أن تصرخي. إنني أدعوك لذلك. حيث أنه يمنحني فرصة ممتازة لأن أحشو فمك الجميل بأي شيء يبقيه مفتوحاً.»

لدهشته العارمة، لم تصرخ بل ألقت برأسها إلى الخلف، بدلاً من ذلك، وانفجرت ضاحكة.

اشتدت قبضته على ذراعيها مما جعل إيفون تكاد تركض إلى أن وصلا إلى قمة الدرج. وكانت تتنفس بصعوبة وهما يجتازان الممر، ليقفز من كان يراهما بهذا الشكل، هارباً من طريقهما.

قالت له عندما أراد أن يقف عند أول باب وصلا إليه: «كلا.» سحبته إلى الأمام متجاهلة الضغط الذي يزداد فوق كتفيها إذ هو يرفض أن يرخي من قبضته، إلى أن وصلا إلى نهاية الممر، فتحولت يساراً إلى آخر باب هناك كان شبه مفتوحاً، ثم وقفت مائلة بجسمها نحو الرجل الذي كان

www.lilas.com

يقودها، ثم رفست الباب بقدمها لتدخل إلى جناحها القديم.

كانت خادمتها بيتي ما زالت تفرغ محتويات الحقيبة عندما رأتهما بهذا الشكل مما جعلها تقفز من مكانها فاغرة فاها ذهولاً.

كان جسد إيفون منحنياً إلى الخلف وقد انسدلت على وجهها خصلة من شعرها، بينما ارتخت كتفاها على صدر رجل برونزي اللون خلفها. كان وجهه الوسيم يبدو عليه تعبير غريب وهو ينظر إلى المرأة التي يقبض عليها بعينين تشتعلان غضباً.

لا بد أن مظهرها كان شديد الغرابة إذ كانت كفها مطبوعة على وجنته المشدودة، ثم إصرارها على أن تقوده إلى الباب. بدأت إيفون تضحك مرة أخرى كامرأة مجنونة وهي ترى التعبير الذي يظهر في عيني خادمتها المذعورتين...

قالت لها: «شكراً يا بيتي. هذا كل شيء.» وحدقت الخادمة في ذلك التهديد الناري الذي وراءها وقالت: «يا آنسة ترنت...» وتلعثمت وقد تملكها الخوف، ولكنها بقيت واقفة متمالكة نفسها وهي تقول: «هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين مني أن... سأكون مسرورة أن أبقى لكي أنهي...؟»

قال آدم ريوارك وهو يحدق في عيني الخادمة ببرود صاعق: «لو كنت مكانك، لخرجت في الوقت الذي ينفع فيه الخروج.»

لم يأخذ الأمر من الخادمة أكثر من ثانيتين لكي تندفع إلى الخارج مقفلة الباب خلفها.

ما أن سمع صوت مزلاج الباب، حتى دفع بالمرأة التي أمامه عبر الغرفة.

سقطت إيفون لتستقر بكل دقة وإحكام على السرير منبطحة على وجهها. شهقت من تأثير الصدمة وقد تناثر شعرها بحركة دائرية رائعة حول رأسها وكتفيها. عند ذاك، صعد الدم إلى رأسها واندفعت إليه وقد ثار ثائرها.

لكنه دار حولها كالصقر، حين وقفت مستندة بيديها على ركبتيها، تواجه نظراته من خلال شعرها الثائر المنسدل على وجهها. كانت تلهث وتزأر بصوت عال قد نم فيه الإنتعاش. وبدا عليها وكأنها على وشك القيام بحركة مجهولة خطيرة، كهرة متحفزة إما للوثوب أو الهرب.

بدا عليه أنه مشحون بالغضب هو أيضاً. وحدقت فيه برهة، ثم عادت تجلس وهي تحاول تسريح شعرها. وعندما نظرت إليه مرة ثانية، كان قد استعاد هدوءه ورباطة جأشه.

إستند آدم ريوارك إلى الباب وقد عقد ذراعيه فوق صدره ووضع قدماً فوق الأخرى. وقد ضاقت عيناه اللتان بلغت حدتهما النهاية.

قال: «أريد إيضاحاً لما فعلت.»

لم يكن ثمة أثر للغضب في وجهه الصارم الجميل، أو فمه أو صوته. لم يكن ثمة مشاعر على الإطلاق. كان قد عاد ثابتاً كالتمثال، ولكن، أن يكون مثل هذا الرجل المليء بالحيوية، لا شيء أكثر من حجر بارد، بدلاً من أن يكون إنساناً دافيء المشاعر، فهذا لا يمكن احتماله... فكرت في ذلك بمزيج من الغضب

www.liilas.com

والتسلية... لا بد أن يكون عديم الإحساس وكان عليها أن تثيره أكثر مما فعلت.

كان يتكلم بانكليزية راقية، وردت عليه إيفون بنبرة ساخرة بقولها: «ليس من عادتي توضيح أي شيء أبداً.»

توترت أعصابه، ليستحيل إلى ذلك الجندي الذي يدرس خصمه أولاً بكل هدوء قبل أن ينقض عليه بالضربة القاضية.

قال: «ولكنك ستفعلين.» والتوت شفتاه بشبه تفكه يدل على الغيظ، أو كضربة السياف الخفيفة قبل أن يبدأ المبارزة، بينما العينان الرماديتان لا تكفان عن المراقبة.

وكان رد إيفون على ذلك ثورة مفاجئة، وتوهج وجهها وهي تقول: «تباً لك. لن أخضع لأي قيد.»

سألها قائلاً: «كلا؟» وارتفع حاجباه المقوسان وبدا سؤاله هذا أشبه بدعك جرح حي بالملح. وتابع قائلاً: «ربما من الضروري اذاً، أن تخضعي.»

بدت عيناها الكبيرتان القاتمتان خاليتين من التعبير كوجهها. ودون أن تنطق بتحذير أو أي شيء آخر، وكان هو لا يزال مقفلاً باب الخروج أمامها، اندفعت فجأة من السرير. وما لبثت أن ضحكت لدى هزيمتها الثانية هذه أثناء محاولتها الهرب كما حدث من قبل. وقالت بهدوء، وكأنما تحدث نفسها، يا لغرابة أهواء الرجال، همست له: «إنك ترتكب خطأً شنيعاً، يا صديقي.» ولكنه ظل محافظاً على برودة أعصابه لسماعه هذا الإنذار. وعادت تقول: «انتبه جيداً لما تفعل.

www.lilas.com

إنني ساجعل حياتك اليومية جحيماً إن لم تدعني أخرج.»

هنا ابتسم قائلاً: «ما أغرب هذا.» كانت ابتسامة متفردة في جمالها، وتابع: «أن تتكبدي عناء كل هذا الطريق الطويل لتدخليني غرفة نومك. إن عندي الكثيرات من الممثلات اللاتي يتقربن إليّ بكل ما في وسعهن لكي يحصلن على... اهتمامي بهن. ولكن، لا بد لي من القول، ان تقربك هذا تستحقين عليه خاتماً من نحاس.»

تكورت يداها الصغيرتان كالمخالب، وأخذت أنفاسها تصفر من خلال منخريها، ثم قالت غاضبة: «اعفني من تصوراتك التي لا معنى لها والصادرة عن إنسان مغرور. واعلم، ولو أن ما أقول لن يصدقه إنسان مثلك، انني لم أهرب سنتين من عملي في هذه المهنة لكي أحضر صاغرة لدى أول إشارة من مناوراتك. إنك لست أول من حاول إعادتي، فابعد ذهنك إذاً عن تصوراتك العاطفية هذه، ودعني أذهب.»

نظر إليها بعينين ضيقتين وكأنه لم ير من قبل مثل هذه العينة، ولم يبد عليه أنها أعجبته وتمتم: «وتذهبين وأنت على هذه الحال من الغيظ؟»

كادت تبتسم. لقد فهم الفكرة، هذا حسن. وزمجرت قائلة: «كما أنني لن أعود.»

قال بحماس وهو يتخلل شعره القاتم بأصابعه ويستند بكتفه على الباب: «إنك مخطئة. فقد عدت وانتهى الأمر من المكان الذي كنت قد أخفيت نفسك فيه. كل هذا الطريق... من أين؟... إليّ أنا هذه الليلة فقط لكي تصفعيني وتخبريني أنك

قد تقاعدت؟ إن هذا يجعلني أفهم أنك فعلاً، تكبحين عواطفك.»

مالت برأسها جانباً. لقد حان الوقت لتجرب طريقة أخرى. وقالت: «كيف تجرؤ؟» كانت تتكلم بهدوء بينما كانت كبحيرة تمتص الظلال، أو مرآة قاتمة تعكس أعماق النفس. لقد تاقت إلى تمثيل مأساة مثالية تدمي قلبها. كان ذلك يظهر في نظراتها الكسيرة الدامعة. وقالت: «كيف تجرؤ على أن تعبث بمهنة أبي بهذا الشكل؟ أتعرف ما الذي فعلته به؟ حين سلطت ذلك الشيء فوقه كالسيف؟ إنه ممثل ممتاز شاء له سوء الحظ أن يقوم بعدة أدوار فاشلة في السنوات الأخيرة. كانت أخطاء تتعلق بالعمل ولا تنعكس على مقدرته التمثيلية.»

حدق الرجل الثلجي فيها وقد تسمر في مكانه. هل كانت الدموع تذيبه حقيقة؟ وأجاب ببطء: «لقد بدأت أرى بنفسي ما هي مقدرة أبيك التمثيلية. إنني أعلم أنه يريد دوراً، وطبعاً هذا ما يريده أي ممثل محترم. ولكن دور الفتاة التي ترعى أباها السائر في طريق الموت، هذا الدور ليس أساسياً، ولكنه دور فائق الرقة والحساسية، حتى أنه صالح لترشيحه لنيل جائزة الأوسكار.»

قالت متهمة: «لقد جعلت ذلك الدور يبدو وكأن فيه خلاصة.» ومالت بعنقها وقد تملكها التعب والمرارة. وسالت دموعها على وجنتيها ثم تابعت تقول: «ثم سحبت منه الدور. كيف أمكنك أن تكون بهذه القسوة إذ جعلت حصوله على الدور يعتمد على قبولي دور الإبنة؟ ألا ترى كم كنت مخطئاً في هذا التصرف؟ إنه مناسب تماماً لذلك

www.lilas.com

الدور... إنما أنا التي هي غير مناسبة لمشروعك ذاك.»

وبدأ يهتز. حدقت فيه بنظرة جانبية من خلال أهدابها، ثم صرت بأسنانها ثائرة لما رأت.

ذلك أن آدم ريوارك، المنعدم الشعور والإحساس، البارد القلب، ألقى برأسه إلى الخلف وقهقه عالياً. كانت ضحكة رجل مدوية صادرة من القلب، ضحكة طعنتها في قلبها وهزتها بالإنفعالات المعقدة... وكان كل ما استطاعت فعله هو أنها وقفت متصلبة الجسم وهي تحدق فيه بغضب.

قال رجل الثلج عندما عاد إلى نفسه: «إنني حائر، نعم. أعتقد أنني تغلبت على ذلك. أيتها السيدة الشابة، لقد تجاوزت كل توقعاتي. الدموع، لقد كانت الدموع هي التي أثرت بي حقيقة.»

سرعان ما جفت دموعها وكأنها بسحر ساحر. وزأرت إيفون ثائرة، والتوت يداها برغبة عميقة لعمل ما. رأى هو ذلك، فابتسم لها برقة قائلاً: «لا تهتمي لذلك. لقد أصبت الهدف معي مرة ولكن ذلك لن يتكرر.»

قالت: «وما الذي يجعلك تتأكد من ذلك؟» وتوتر وجهها كما يحدث للصياد قبل أن يطلق النار على الفريسة، ولكن عينيها كانتا في منتهى الحذر وهي تنصب الشرك الجديد قائلة: «طبعاً إلا إذا وافقتني على ألا تتابع ذلك.»

أجابها ببساطة: «ولكنني لا أوافقك على ذلك أبداً. إن عندي رأياً مخالفاً لرأيك تماماً، وهو أن تأخذي أنت دور الإبنة، وأبوك يأخذ دوره، وأنا... آخذ ما أريد. وهذا في رأيي حل في منتهى العدل والإنصاف.»

فهمت وقد غصت بريقها: «كلا.»

ابتسم وقال: «كيف يمكنك أن تقولي ذلك، وأنت لم تري المخطوط بعد؟ إنه رائع الجمال محرك للعواطف والذكريات. إن أية ممثلة أخرى لا تتوانى عن أن تبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول على مثل هذه الفرصة.»

هزت رأسها لتتطاير خصلات شعرها الكستنائي في الهواء. وكانت ذراعاها معقودتين فوق صدرها وهي تهمس قائلة: إنك لم تستمع إلي. ذلك أنني لم أعد ممثلة بعد الآن.»

قال بحدة وقد قطب جبينه عابساً: «هراء. إنك تمثلين منذ طفولتك. إنك تقومين بالتمثيل بنفس السهولة الطبيعية التي تتنفسين بها. فأنت تملكين موهبة كبرى لذلك، ولا تعرفين كيف تتصرفين بها.»

لكن، أين كانت غلطتها الكبرى؟ وكيف حدث أن خسرت مصلحتها ووصلت إلى هذه الكارثة؟ لقد جاءت تغزو ولكنه هزمها، ولقد أرعبها ما رأى وقاله لها.

اشتبكت نظراتها بنظراته، ورفضت هي أن تذعن، أو تستعطف، وقالت مهددة: «لن أقوم بذلك. وأنت لا تستطيع إرغامي، سأحبط مساعيك أينما كان... سأجعلك تتمنى لو لم تقع عيناك علي.»

قال الرجل الثلجي وقد بانت القسوة على شفتيه والرقة في نظراته الثلجية: «إنها تصورات وغضب. إنك تحبين أباك جداً. دعي عنك ذلك يا إيفون. لقد جئت، إنك هنا، وأنت ملكي.»

ارتجفت، ثم رفعت رأسها بكبرياء قائلة: «إنك تستخف بي.»

قال: «كلا.» واستقام بوقفته ليغطي باب سجنها بشكل كامل، واضعاً رأسه على الخشب مظهراً التكاسل وهو يتابع «إنني أدرس إمكانياتك.»

قالت بتوتر: «إن عجرفتك لا تحتمل.» ومشت بخطوات واسعة إلى وسط الغرفة ثم وقفت وقد تملكها الإرتباك. وتابعت قولها: «إنك لا تعرف من أنا وماذا كنت. أو ماذا أستطيع عمله وما لا أستطيع.»

قال يحثها بكلمات بطيئة: «ألست أنا سيليستا.»

فتحت فمها ونظرت إليه مصعوقة.

وتابع قوله: «ألست أنا ماري؟»

أدارت له ظهرها وهي تقف عبر الغرفة. إنه لن يمكنه رؤية الرجفة التي سرت في جسدها... كلا لا يمكنه ذلك بالطبع.

عاد يسأل بقسوة: «ألست أنا اليزابيت، إلواز، رايانون، سارا...»

أطلقت صرخة عالية، كصرخة الألم يطلقها الصقر الذي أطلق عليه النار وهو يحلق في السماء. حطمت الرجفة التي شملت جسدها، لتتهاوى على ركبتيها وقد حنت كتفيها الهزيمة.

ثمة شخص كان يرتجف. وأغمضت إيفون عينيها وقد أصابتها الطعنة في الصميم. في صميمها هي وليس صميم أي شخص آخر. إنها تريد ذلك الانعدام في الهوية.. ليس ذلك أبداً بعد الآن.

www.lilas.com

انحنى شخص ما آخر فوقها، كمظلة تحميها من الضوء الساطع. وبعد دقيقة استطاعت أن تتذكر وضعها.

كان ثمة من يزيح خصلات شعرها بلطف عن وجهها الشاحب بأصابع طويلة وقد جلس على الأرض أمامها محيطاً، بذراع فولاذية، وسطها الذي انحنى إلى الخلف. في دقيقة واحدة، أدركت الصلة بين هذا كله. لماذا سقط رأسها بمثل هذا الضعف، إلى الوراء في راحة يد واحدة، ولماذا تشعر بشيء رقيق فوق فمها المقوس.

لقد قبلها ملك الشتاء بكل الدفء الذي يحويه الشفق عند المغيب، وفتحت عينيها. هل يمكن لوجه تحت الحجر أن يصبح دافئاً؟ وامتدت أصابعها تبحث عن الجواب ووجدته في رجل دافىء يتدفق كل جزء منه بالحيوية كالغضب تماماً، وربما أكثر قوة وحزماً.

همس: «إنني آسف يا إيفون. لقد تجاوزنا الحد. لم أكن أقصد إيذاءك بهذا الشكل. إنني لم أعلم...»

لماذا يبدو الرجل الثلجي مهشماً هكذا؟ وابتدأت تضحك بنعومة وارتجاف، ومرح. وارتد رأسه إلى الخلف كمن لسعته حية وأخذت التعابير تتعاقب على ملامحه بعنف.

راقبت هي كل ذلك بسرور بالغ، واشتد ضحكها عندما سحب ذراعيه من حولها فجأة لتسقط منبطحة على الأرض. ووقف آدم ثم انحنى فوقها بينما كانت هي تتقلب على ظهرها وتبسط ساقيها ثم تضع الواحدة على الأخرى وهي تلحظ ملامحه الثائرة في مرح.

زمجر من بين أسنانه: «تباً لك! إنك مخلوقة مدمرة.» وبدا

عليه وكأنه يتمنى أن يقتلها ثم يذهب راضياً إلى المشنقة.

قالت إيفون متهكمة: «الإصابة رقم إثنان.» وشبكت أصابعها معاً ووضعت يديها تحت رأسها ثم أمالته جانباً، حيث تستطيع أن تقرأ أساريره بشكل أفضل. وتابعت: «حتى قبل ان تنتهي الليلة الأولى. فكر في ما ستفعله بشهرتك خلال الأربعة أشهر القادمة التي سيستغرقها إنتاج الفيلم بضبط النفس. إحنِ رأسك للحقيقة التي لا مناص منها، يا آدم، ودعني أذهب.»

هز رأسه وزمجر قائلاً: «أبداً. إنك ستمثلين الفيلم سواء شئت أم أبيت. ومهما كان احتجاجك. وبالرغم من عنفك وكفاحك وهذيانك، ستقومين بالتمثيل بكل كفاءة وبكل احترام للداخلين في الموضوع، لأنك إذا لم تفعلي ذلك فإن أباك سيبتعد عن هذا المشروع أكثر من ألف ميل. وبما أن مركزه الآن مزعزع فهذا يعني انه لن يحصل على فرصة أخرى قيمة للعمل. هل هذا واضح؟»

قالت إيفون باقتضاب: «واضح للغاية.» كانت عيناها حفرتين من نار دون قرار في وجه في غاية التوتر، وهي تتابع ببرود: «سأقوم بالتمثيل في فيلمك اللعين هذا، سواء شئت أنا أم أبيت.» سأقوم بالتمثيل بكل الدقة والكفاءة والإحترام. لأنني اريد لسمعتي كأفضل ممثلة أن تبقى وليس لأنك تأمرني بذلك أو تتوسله مني، وأتصرف بهذا الشكل مع كل من له علاقة بالفيلم ما عداك أنت. سابتسم وأكون رقيقة ولطيفة ومتعاونة مع الجميع، ما عداك.»

قال بازدراء وهو يتنفس بصعوبة: «لا بأس، لا يهمني ذلك.»

www.lilas.com

قالت ببطء: «هذا إنذار عادل، إذاً.»

قال لاوياً شفتيه: «إنذار عادل.» ونظر إليها بأسف، فرفعت ذقنها ساخرة به، وأطلق هو ضحكة قصيرة ساخرة وهو يقول: «فليكن في عوننا نحن الإثنين.»

وعندما استدار مبتعداً عنها، تمتمت برقة: «هل تهرب يا صديقي؟»

قال ملك الشتاء وهو يضع يده على قبضة الباب بينما أدار رأسه ينظر إليها: «أنت وأنا لن نكون صديقين أبداً، يا إيفون. وهذا ما أضمنه لك. كما أنني أخبرك بهذا أيضاً مجاناً، لا أهرب أبداً من التحدي أو الكفاح. ولكن بيني وبين أبيك أعمال غير منتهية. وأنا مهتم كثيراً بأن أرى ما الذي سيقوله عن نفسه.»

وكما فعلت الخادمة من قبل، خرج وأقفل الباب خلفه.

لملمت هي نفسها لتترك ذلك الوضع الذي أرهقها وراء ظهرها، وجلست القرفصاء واضعة ركبتيها بموازاة صدرها لتلتف حول نفسها كالكرة.

وضعت وجهها على ركبتيها. وشعرت بنفسها تشرف على النهاية. ولكن، الآن، ماذا يعني هذا؟

عبست حيث لم يكن هناك من يراها، لحسن حظها. هذا يعني أن آدم ريوارك قد أمسك الذئب من ذنبه. وأن عليها أن تحكم قبضتها على عنقه. إذ من يدري أية كارثة ستحصل، ما دام ينظر الواحد منهما إلى الآخر، وجهاً لوجه، إذا حدث وانزلق أحدهما؟ من يعلم؟

أوه، لقد اشتاقت إلى البيت، لكي تكون جبانة أنانية عديمة الكبرياء، لتهتم بخيولها الثمينة وتمد أنظارها من

أمام عتبة بابها، إلى أراضيها الممتدة على طول النظر، أن تحلم، كما طالما حلمت في السنتين الأخيرتين، بعيداً تحت سماء مونتانا الواسعة.

هزت كتفيها وقالت بصوت عالٍ: «يا لك من حمقاء.»

ذلك أن الذي حدث ربما كان لصالحها. ولكنها تشك في أنها قد تستفيد من الحقيقة.

www.liilas.com

الفصل الثاني

غرق وكيل أعمالها في نشوة كبيرة.

مع ان إيفون احتقرت حماسه ذاك، فإنه لم يظهر اي اهتمام لذلك. وبعد أن أنهت اتصالها الهاتفي به، عادت تكمل ارتداء ثيابها الذي استغرق أقل من دقيقة. ارتدت سروال جينز قديماً وقميصاً قرمزياً كانت بيتي قد أحسنت كيه. وجمعت شعرها الكث الى جانب وتركته مسدلاً، مربوطاً في نهايته بحلقة مطاطية.

كان الوقت قبيل الظهر. وكان على الرجل الثلجي أن يتصرف بسرعة ليتصل بالمخرج المنفذ للفيلم وبمن لهم علاقة به. ثم استدعى وكيل أعمالها ولم تكن هي قد استدعته بعد. وكان العرض كريماً للغاية. فغمرتها الثروة التي انهالت عليها من مشاريع أفلام آدم ريوارك الناجحة: هذا إلى عودتها السريعة إلى هذه الصناعة. والحقيقة أنها لم تكن بحاجة إلى تلك الثروة، ولا إلى تلك العودة السريعة. ولكن، بما أن الابتزاز هذا قد حدث وانتهى الامر، فقد كان الحوار، على الاقل، غير عادي.

تساءلت عن دور آدم في كل هذا. إن مخرجي الافلام لهم سلطة واسعة تشمل أشياء كثيرة. ولكن نشاطه في العقد بينهما، ينص على أن صلته بهذا الفيلم هذا هو أكثر من المعتاد. هل تراه يتعهد كل أفلامه بهذا الشكل أم أن تلك ما يحدث في هذا الفيلم بالذات؟

نزلت إلى الطابق الاسفل حيث مضت تبحث عن أهلها وعن إفطارها.

وفي طريقها إلى غرفة الطعام، ترددت. كانت الاسرة مجتمعة حول المائدة. والداها كريستوفر وفيفيان كانا يضحكان معاً لنادرة ما، كانا زوجين سعيدين على الدوام. وكان زواجهما، بعد ثلاثين عاماً في منتهى النجاح وأحد شذوذ القاعدة في هوليوود.

كانا قد قاما بزيارتها في مونتانا بشكل متقطع، إذ كانا يفضلان الاتصال بها هاتفياً. وكانت فيفيان تكره خيول إيفون الاصيلة، أو (الحيوانات المخيفة) كما كانت تدعوها. ولكن دايفيد، أخاها الذي يكبرها بخمس سنوات، كان يحب مزرعة الدواجن تلك التي تملكها، وكان يتردد عليها كلما سمح له وقته ونجاحه لأعماله ككاتب سينمائي ساخر.

كان حضورها ملحوظاً، ورحبوا بها بحرارة وتأثر. ومن أثناء الوجبة الخفيفة المؤلفة من الهليون والفاكهة الطازجة، إستمعت إلى آخر القصص والأحداث في أسرتها. وأثناء الحديث كانت تتأمل أباها باهتمام. بدا كريستوفر بصحة جيدة بشكل لا يصدق بالنسبة إلى رجل في الخمسينات. سواء كان ذلك صحياً أم جمالاً في المظهر إذ كان يبدو أصغر من عمره بسنوات، وكان الشيب قد خط شعره الكستنائي الجميل عند صدغيه.

أسندت إيفون ذقنها على يدها النحيلة وسألت أباها:

«هل تحدثت مع آدم الليلة الماضية؟»

نظر والدها بمحبة قائلاً: «نعم. لقد فعلت.»

www.lilas.com

ساد التردد جو الغرفة. نظرت فيفيان إلى طعامها باهتمام، ومضى دايفيد يمعن النظر في يديه.

فكرت في أنها قد تكون مجنونة، ولكنها، قطعاً، ليست غبية. وضاقت عيناها حين خامرها الشك.

وسألت في صوت ناعم خطر: «وهل كل شيء على ما يرام؟» إن لم يكن ذلك، وإن لم يرتد ذلك الرجل الثلجي عن هذه الصفقة البشعة، فإنها ستمزقه بيديها هاتين.

تملكتها تصورات ساخنة. رأت نفسها ثائرة بعصبية، وملك الشتاء فارع الطول كبرج من العاج يتوّجه اللهب، بينما يداها تمزقان ملابسه، وقد مال برأسه الى الخلف. واهتزت إيفون لهذه الصورة وقد امتلأت نفسها حقداً.

لكن عيني والدها لمعتا سروراً وهو يقول: «كل شيء مضى قدماً بشكل يفوق ما تمناه أي منا. لقد وصلت مع آدم إلى اتفاقية ممتازة جداً.»

تناوبتها مشاعر الراحة وخيبة الأمل. هل كان ثمة مخلوق يحوي مثل مشاعرها المتناقضة؟ وحملت إيفون نفسها على الإبتسام إكراماً لوالدها وقالت ببساطة: «إنني مسرورة لذلك.»

عاد أبوها يقول: «ويا لها من فرصة نادرة. لقد حصلت على امتياز بالعمل مع أحد من الموهوبين في هذا العصر، وهي ابنتي الرائعة الجمال.» ومد يده يمسك بيدها يرفعها الى شفتيه وهو يتابع قائلاً: «إنني شديد الولع بك يا إيفون، وشكراً لما فعلته لأجلي. إننا فخورون بك حقاً.»

قالت متذمرة: «كفى، ما هذا الهراء؟» كانت تعرف أنها

ورثت أكثر مواهبها عن والديها. ولكن اللطف لم يكن واحداً منها. ومررت على وجنة والدها بأصابعها بخفة وسرعة ومع هذا لحظها الحاضرون في الغرفة.

«يا لهذا المنظر المؤثر.» أدلى آدم ريوارك بهذه الملاحظة بخفة، وهو يقف عند عتبة الباب.

سرت الدهشة بين الحاضرين. واستحال الجو الهادىء الحميم في الغرفة إلى فوضى وهرج.

على الفور، بانت العصبية على ملامح إيفون، وتوتر وجهها ليصبح كوجه قطة متوحشة، حالما وقعت أنظارها على ذلك المتطفل.

من يظن نفسه هذا الذي ينتصب هناك كالنصب الملكي؟ كان شعره القاتم المحمر مسرحاً بأناقة من حدود جبهته الرائعة.

كانت على فمه الجميل ابتسامة خفية لا تكاد تلحظ بينما عيناه تتأملانها بازدراء.

كانت ملابسه بسيطة كلاسيكية كما كانت ليلة أمس. وكان قميصه مفتوحاً عند العنق. وسرواله الملون ينسدل بليونة على ساقيه. وكانت أجزاء جسده متناسقة رائعة تكسوها العضلات دون أي افراط في السمنة في أي مكان.

قال آدم دون أن يحول نظراته عنها: «فيفيان، كريستوفر، دافيد، كيف حالكم جميعاً؟» حيوه جميعاً ببساطة وهذا ما زاد في ثورتها بالرغم من المنطق العام في ذلك. لماذا يعادون الفاتح المنتصر فيتعرضون للعقوبة؟

وقال لها:

«صباح الخير يا إيفون، هل أستطيع القول انك تبدين في حال طيبة هذا النهار؟»

قدحت عيناها شرراً وهي تنظر إليه وقالت بحدة أول شيء سخيف تبادر إلى ذهنها: «إن نقص النمش على بشرتك هو إهانة للطبيعة.»

واتسعت عينا ملك الشتاء دون أن تلحظ هي ذلك، وقطبت أمها جبينها، بينما قال آدم بهدوء: «أريد أن أتحدث إليك.»

قال كريستوفر آمراً: «لنبتعد.» وسرعان ما تفرقت أسرتها الحبيبة كأوراق الشجر في الخريف.

شتمتهم إيفون بذهن شارد وهي تستقيم في جلوسها وترمق طعامها الذي لم تنته منه، ثم أبعدت صحنها بعيداً.

وقالت بغلظة: «حسناً، تكلم.» ونظرت اليه بطرف عينها وهو يعبر الغرفة نحوها.

قال بتهكم وهو يستدير حول المائدة ويضع عليها رزمة كان يحملها: «إنه جو جميل. ولكن، هل تظنين أن المطر سينهمر؟» وبحثت أصابعها عن شيء تمسكت به بشدة إلى أن برزت عظامها.

وضع هو يده برقة على معصمها. وسرى الدفء منها إلى مشاعرها، وقال لها: «إنني لا أستحق كل ذلك.» فنظرت إلى يديهما. كانت يدها الأنثوية الشكل من القوة بحيث تقبض على حصان مشاكس. وكانت يد آدم تبدو نحيلة إلى أن ألقاها على يدها لتظهر المقارنة، قوتها العضلية وكبر حجمها.

أجابته وهي ترخي من قبضتها وتسحب يدها من

www.liilas.com

يده: «كلا. إنك لا تستحق كل ذلك. والآن، ماذا تريد؟»

اندفعت واقفة لتسير في أرجاء الغرفة الخالية بضجر، وعادت تنظر إليه بطرف عينها. ثم تتفحص نفسها. كان يبدو وكأنما قد فارقته بعض شخصيته المسيطرة تلك. وتساءلت عما إذا كان متشوقاً إلى أن يدفعها الى العنف. ذلك أنها لم تحلم قطعاً أن تتصرف مع أي إنسان من قبل بمثل العنف الذي دفعها هو الى أن تظهره نحوه. يا للرباط الغريب الذي شد الواحد منهما الى الآخر.

لكنه، بالعكس منها، استعاد شخصيته الباردة وهو يستند إلى المائدة مفكراً. لقد أغلق نفسه دونها بشكل كامل بحيث لم يعد يستطيع أي مخلوق أن يعيده إلى هذا العالم من عالمه الخاص ذاك، إلا إذا شاء هو. ولقد كانت مملكة ملك الشتاء واسعة.

أجاب آدم وهو يمد يده إلى الرزمة التي كان قد وضعها على المائدة: «لقد أحضرت لك سيناريو الفيلم، والقراءة الأولى ستكون بعد ظهر الإثنين. وتفاصيل ذلك عند والدك.»

كانت تتنفس بسرعة وقد شعرت به لا يطاق. وتقدمت إلى الأمام، وبسرعة الصقر المحلق في السماء، مدت أصابعها تأخذ الرزمة لتلقي بها في المدفأة الرخامية.

خرج آدم عن جموده في قفزة عالية قبل أن يتمالك نفسه، نحو المدفأة التي كانت خالية وباردة وحيث كانت الرزمة لا تزال سليمة. وقف جامداً ثم استدار إليها، وغطت هي فمها بيديها الإثنتين متصنعة الفزع بينما كانت عيناها تتراقصان بابتهاج ماكر.

تمتم: «يا للطفلة المسكينة.» ثم تقدم نحوها مهدداً وقد بان العنف على ملامحه، وتابع قوله، «لأول مرة في حياتك لن تنالي ما تشائين. ماالذي يمكن أن أفكر فيه؟»

صرت على أسنانها، ثم أنزلت يديها لتصفعه بقولها: «إنني أشك في أن التفكير من عادتك.»

قال عابساً وصدره يعلو وينخفض: «ان تفكيري لا يدور حولك بكل تأكيد.» ووضع يديه على خاصرتيه يعبر بذلك عن اشمئزازه. شعره الخمري اللون فقد تسريحته ليسقط على جبهته وهو يستطرد قائلاً: «إن روح التدمير فيك لا تخطىء. إذ يمكنك أن تسوي عقل الرجل بالأرض دون أي اهتمام منك، ثم تسحقيه بكعبك.»

قالت له بنعومة: «غير عقلك.»

هز رأسه وابتسم ابتسامة بحدة السيف وهو يقول: «أبداً.»

صدر عنها صوت مخنوق متحشرج، وبان الضحك في عينيه الرماديتين. فقفزت إلى حيث المدفأة، وأمسكت بعلبة كبريت، وأشعلت منها عوداً في الوقت الذي هبط فيه عليها الرعد.

لم تكن يداه الممسكتان بمعصميها، تحويا أي شيء من الرقة. لقد انفجر الرعد منه بشكل نفخة خفيفة صامتة. فانطفأ لهب العود بين إصبعيها.

كانت يدها الأخرى لا تزال تمسك بالعلبة. فأدارها نحوه بالكامل ثم هزها وقد ساد العنف ملامحه الوسيمة وهو يزمجر من بين أسنانه: «القيها من يدك.» لم تقل شيئاً، ولم تفعل شيئاً، فهزها بمزيد من العنف وهو يقول: «القيها، عليك اللعنة.»

www.lilas.com

لكنها كانت كتمثال جامد. واشتدت قبضته، بدا وكأنه لا يدري بما يفعل عندما أخذ الألم يشمل جسدها ببطء ليسلب منها القوة.

كانت عيناها الكبيرتان الداكنتان مركزتين عليه دون أن تطرفا وقد بانت فيهما الصدمة والعجب. لم تكن قد رأت من قبل شيئاً بمثل هذا العنف وهذا الجمال. تهالكت فوق الأرض وانحنى هو فوقها، لتدفعها نظراته العنيفة المرغمة إلى تمالك أشتات نفسها المبعثرة، ولم تدرك نفسها في الحيرة التي اوقعها فيها.

مهما كان الشيء الذي رآه على وجهها، فقد غير من تعبيراته. جثى على الأرض وأخذ يدلك ساعدها برقة ولطف وهو يقول بلهجة آسرة: «ألا تلقينها من يدك يا إيفون؟ ألا تلقينها من يدك؟»

ماذا... ماذا كان يفعل؟ لقد أصاب النمر الكامن في نفسها الذهول والارتباك، عندما ترك ذراعها تماماً، وأمسك ذقنها بأصابعه. وطرفت بعينيها وقد تشوش ذهنها، ثم انحنى يقبلها.

إذا كان في الليلة الماضية دافئاً، فقد كان الآن مشتعلاً. وتنفست بحيرة بالغة وهي تبادله القبلة.

فجأة، انفجرت الحقيقة في ذهنها... حقيقة ما تفعل. وفكرت بينما كل مشاعرها تهتز، ما الذي أفعله الآن؟ كيف أبادل عدوي الحب؟ وأدار رأسها الذهول. إنني مجنونة... هل هو شعور عميق كامن، تفجر الآن؟ نعم... لا بد أنه كذلك.

بسرعة تغيرت لتعود الى ذلك الطبع الشرس. وأخذت

تناضله وقد شدها إلى جسده بذراعيه اللتين لا ترحمان وعندما رفض أن يتركها، عضت شفته بقوة.

تقهقر مبتعداً وهو يشهق، وقد استحال وجهه الى وج آخر متوتر ثائر. وكانت عيناه الرماديتان تشتعلان، وعلى شفته السفلى ظهرت بقعة قرمزية اللون. وبعثت تعابي وجهه المشحونة، في نفسها مشاعر مدفونة في الاعماق م روحها. ثم، إذا به ينحني عليها بوجه مريع وفم متور وعينين ببرودة الثلج، ثم يهوي عليها بوحشية ليرد لها العضة.

كان هو الذي يضحك الآن راضياً متشفياً وهي تسقـ مصعوقة. انه هو الذي تركها الآن. كانت يداها معقودتين فوق صدرها في حركة دفاعية وقد جلست القرفصاء على عقبيها.

كان في امكانها أن تصرخ في وجهه ثائرة لو كان قد أعطاها الفرصة لذلك. ولكن، بدلاً من ذلك، سقطت أنظار آدم الشفافة إلى يديها، ثم عبس. وعند ذلك، أدركت لماذا كان قد قبلها منذ البداية، ثم حركته المراوغة تلك، والسبب وراء تقربه الرقيق منها، ثم هجومه المفاجيء. وغضبت، عند ذلك، كما لم تغضب من قبل. كان ذلك شيئاً بعيداً عن التصديق. ولكنها تساءلت، لماذا تشعر بكل هذه الخيبة والاحباط؟

هل من الممكن للإنسان أن ينال النصر من وراء الهزيمة؟ لقد رفعت علبة الكبريت التي لم تتخل عنها، وخشخشت بها تحت أنفه الارستقراطي. كانت العلبة قد تحطمت وفقدت شكلها. إنها لم تتركها من يدها، وكان في امكانها أن تدعها

تسقط من يدها، ولكنها كانت تفضل الموت على أن تسلمها له.

عندئذ، ابتسم آدم وقال وكأن ما سيقوله يبعث على السرور: «إنك لا تستسلمين أبداً. أليس كذلك؟ إنك فقط لا تعرفين كيف يكون ذلك.»

قلبت شفتيها باشمئزاز وهي تقول: «إنني أعرف ذلك بالتأكيد.»

قال بجفاء وهو يدخل يهوتحت مرفقها: «أهو الدلال؟ أم المجد؟ أم الروح الرياضية؟»

أجابت بنفس الجفاء وهي تسمح له بمساعدتها على الوقوف على قدميها: «لقد جربتها جميعاً. ويبدو أنها جميعاً تنطبق على أناس آخرين ومشاهد أخرى، وليس عليك. لم يتمكن أحد أن ابتزازي أو إرغامي على شيء في حياتي. وهذا ما يدفعني الى الثورة والحقد.»

قال بسرور: «أوه، أهذه هي المسألة؟»

ونظرت اليه بضجر. لم يكن لديها وقت للتلميحات، ويظهر أنه لم يجد موجباً لأن يقنع قلبه لها. وتساءلت عما إذا كان قد تكلف عناء ذلك بالنسبة لأي انسان. ويبدو أن هذه الميزة، على الاقل، كانت مشتركة بينهما.

قال: «إن الشعور بأنك لا تتصرفين بهذا الشكل مع أي رجل تقابلينه، هذا الشعور يبعث في نفسي الارتياح.»

قالت بابتسامة باردة: «ومن قال إنني لا أفعل؟»

أمعن فيها النظر متفكهاً، ثم هز رأسه وانحنى يستعيد الرزمة من المدفأة قبل أن تعود فتحرقها. هزت كتفيها وهي تلقي بعلبة الكبريت فوق رف المدفأة، ثم وضع

www.lilas.com

السيناريو في يدها قائلاً: «احرقيها، فتأتيك منها نسخة أخرى. إياك أن تذهبي طاقتك سدى على مثل هذه الأشياء العبثية.»

قالت وهي ترمقه بنظرة جانبية: «كلا - في الحقيقة، إن الوقت قد حان لأغير من هذه الأساليب على كل حال.»

قال وهو يمرر اصبعه على وجنتها المتوترة دون اهتمام: «إنك حقودة، عنيدة، معاكسة، فظة، مثيرة للسخط، متكبرة وعديمة الشفقة كذلك. أعتقد أنني أتطلع الآن الى حيلك القادمة. ما أشد قلقك بسبب ذلك القيد.»

«انه سجن لم أكن أحبه قط في حياتي.»

«ولكن ليس ثمة من يسجنك.» قال ملك الشتاء ذلك باستنكار وقد اتسعت عيناه وهو يتابع قوله: «إنك لم توقعي العقد بعد. اذهبي، يا عزيزتي. أديري ظهرك واذهبي.»

كان يمسك بالباب مفتوحاً. وكانت تقف وهي لا تستطيع اتخاذ خطوة نهائية. وقالت: «لا أستطيع.»

قال برقة بالغة جعلتها تدير اليه وجهها: «ذلك لانك وفية لأبيك. أتعلمين أن حضوري اليك اليوم هو لسبب خاص؟»

قالت بعدم اكتراث: «أوه.»

قال: «نعم.» وتوقف برهة ثم استطرد: «أثناء حديثي مع والدك، الليلة الماضية، شرح لي أشياء كثيرة هامة. كان من بينها الارهاق البالغ الذي عانيته في السنة الاخيرة قبل تركك العمل. هل هذا هو السبب في عدم رغبتك في العودة الى العمل؟»

تسمرت في مكانها، تستمع إلى صوته الغني النبرات وهي في منتهى الهدوء، عسى أن يكون ثمة تلميح ما أو معنى مستتر، ولما لم تجد سوى استفهام عادي بحت، أجابت بحذر: «جزئياً.»

كانت لا تزال مشيحة عنه بوجهها فلم تره وهو يغادر مكانه مقترباً منها بصمت ليرى تعابير وجهها. كانت ملامحها متوترة ألماً، بينما عيناها الكبيرتان تنظران الى الاسفل باكتئاب.

كان بليغاً في المبارزة الكلامية. وكان من المهارة في الدخول في الموضوع بحيث أن الضحية لا يمكن أن تشعر بأي ضيق أو ألم وقال ببساطة عادية: «ايفون، ليس في هذا أي عذاب لك. إنه لا يمكنني الا أن أتحداك، ولكنني لن أكلفك فوق طاقتك.»

لأول مرة، يداخل ذلك الرجل الماهر، الشعور بالهزيمة وهو يرى ذلك الكبرياء، وذلك الوجه الذي لا مثيل له، وهو يتلوى بعذاب مس مشاعره، وهي تقول بمرارة: «لا عليك من ذلك. لأنني، كما ترى، قادرة تماماً على القيام بذلك بنفسي.»

وجدت أن حكم آدم كان صائباً تماماً.

فقد كان سيناريو الفيلم لا تنقصه الروعة. لقد أدركت، دون أن يساورها أدنى شك، في أن الفيلم سيكون أروع ما مثلت. ويحتوي إمكانية أن يصبح، بالاخراج الرائع، في القمة لسنين كثيرة قادمة. وأخيراً، تساءلت في هدوء، عما إذا كانت تواجه نهايتها.

مرت أيام كانت كالدوامة. فقد وقعت العقود، والبرامج

www.lilas.com

وضعت، والتعليمات أعطيت للإقامة في أريزونا، وأخذ قياس الملابس لإيفون ووالدها.

وأقامت حفلة غداء على طراز حفلات هوليوود حضرها معارفها القدماء الذين أبدوا السرور البالغ لعودتها الى العمل، وأخذت تبادلهم المزاح دون أن تفصح بشيء عما في نفسها رغم تعطشهم الى ذلك، دخلت بعد ذلك إلى غرفتها وحيدة، لتمضي ساعات طويلة مظلمة حافلة بالأرق حتى قبيل الفجر، وقد تاهت في تأملات لا تنتهي.

اتصل بها آدم هاتفياً بعد ظهر الأحد، وعندما سحبت الهاتف الى غرفتها، بادرها قائلاً دون مقدمات: «إيفون لقد اشتد حماس الصحافة؟»

تمتمت مرهقة وهي مستلقية على سريرها: «أحقاً؟»

أجاب: «إنهم يصرخون مطالبين أن تعقدي مؤتمراً صحفياً. (نجمة سينمائية تختفي عن وجه الأرض سنتين كاملتين لتعود بانتصار باهر...) ومثل هذه الأشياء. إنني لم أر شيئاً كهذا من قبل.»

ابتسمت رغماً عنها. لقد بدت عليه الدهشة. وبشكل هادىء تماماً قالت: «إنهم يحبونني، فقد كانت علاقتي بالصحافة طيبة على الدوام.»

قال بازدراء: «إنهم مجموعة ذئاب، إما أن يغرقوك بالتزلف، وإما يمزقوك إرباً في دقيقة واحدة. يمكنني أن أفهم كيف تتفاهمان.»

ضحكت بصوت عالٍ، متسائلة إن كان قد رأى المقالات التي تتضمن الشائعات، مؤخراً. ذلك أن صحافياً بارزاً كان حاضراً في مأدبة والديها وظهرت هي الى جانب رجل الثلج بكثرة.

قالت له: «إنها غلطتك أنت فأنا لا أتزلف لأحد.»

قال: «حسناً، إذا نحن لم نلق اليهم بعض الفتات نسكتهم بها، فإنهم ربما يطلبون الدم. هل يمكنك أن تقيمي مؤتمراً صحفياً؟ سنجعله قصير الأمد.»

إذن فقد كان يمثل دور وكيل إعلام أيضاً. وهذا يدل على مقدار نفوذه في هذا الفيلم.

اتسعت ابتسامتها وهي تقول: «ولم لا؟»

قال بحذر: «هل أنت متأكدة؟ إنني أعلم أن ذلك يجلب لك الضيق بشكل لعين. ولكن الصحافيين يصيحون مطالبين بالإسراع بذلك. ربما كان ذلك غداً بعد الظهر إذا كان هذا يناسبك.»

قالت برقة كعادتها عندما تكون في منتهى الجد: «لا تهتم. يمكنني أن أقوم بذلك.»

في اليوم التالي، ذهبت مع والدها الى الاستديو للقراءة الأولى للفيلم. وقابلا بقية الممثلين الذين كانوا قليلي العدد على غير العادة. كان التركيز على السيناريو غير سهل وكان يدور حول بعض العلاقات المعقدة فيما بين شخصيات الفيلم.

كان كل من الحضور الثلاثة قد اكتسب شهرة ملحوظة. وأثر ذلك في نفس إيفون، ولكنها لم تظهر تأثرها ذاك. فقد دخلت في صمت وشموخ خلف أبيها، وقد ارتدت ثيابها بنفس عدم الاهتمام المعتاد، وكانت عبارة عن سروال رث وقميص مقفول وحذاء تنس مطاطي. وكان شعرها يتألق في تجعيداته الثائرة. حتى أنها لم تكن تضع أي مسحوق على بشرتها النقية.

www.liilas.com

كان ثمة رجل آخر داكن الشعر وسيم الملامح، ولمرأتان كانتا أنيقتين بشكل بالغ. كانتا رائعتي الجمال مبالغتين في التبرج. نظرتا، إلى إيفون، بمظهرها ذاك، بفزع ونفور. طرفت إيفون عينيها ثم ابتسمت بفتور وهي تتلمس لنفسها مقعداً مريحاً مكسواً بالجلد.

مضت خمس دقائق، ثم سحبت مقعداً آخر ووضعته أمامها ورفعت قدميها عليه. وجلس أبوها في زاوية من الغرفة، فاتناً كما هو أبداً.

كان الممثلون مسحورين وكذلك إيفون.

فتح الباب المؤدي الى الغرفة، وبقي مفتوحاً. لقد وصل ملك الشتاء.

كان كما هو دائماً، في سروال أسود وكنزة سوداء، وكان لثيابه تلك، الى قامته الفارعة واتساع كتفيه وصدره، ونحافة خصره ووركيه، وساقيه الطويلتين، تأثير مدمر، هذا إلى جانب شعره الخمري المتألق وبشرته العاجية.

ساد الوجوم الغرفة. واحتبست أنفاس إيفون لمنظره الصاعق. ولكنها رفضت الإعتراف بذلك لنفسها.

ارتسمت على ملامح آدم ابتسامة تفكه عندما وقعت أنظاره عليها. وسرعان ما تجهم وجهها وهو يجلس الى المنضدة أمامها. وكان كل واحد من الموجودين يضع أمامه نسخة من السيناريو، خاصة به، مفتوحة على المشهد الأول.

كانت عيناها الكبيرتان تتاملانه كما يتأمل عالم مختص بعلم الحشرات، حشرة أمامه.

نظر إليها، ثم رمى نسخته أمامها. وانحدرت أنظارها الى هذه النسخة، ثم ارتفعت الى نظراته الثلجية وشفتيه المطبقتين. بدا لها الخطر أمام ملك الشتاء منذراً بشر مستطير. ولكنها لم تغير من جلستها المتراخية.

استدار وهو يبتسم للآخرين، ومن ثم ابتدأ في التمهيد مقدماً موجزاً رائعاً للبحث المطول عن أهدافه المقصودة.

حيث كافح والدها، من قبل، ووجد النجاح، جاء آدم ليمتلك المكان مسيطراً دون جهد، ولكن لا كريستوفر ولا بقية الممثلين الرجال أبدوا أي اعتراض على مجيء هذه الشخصية المتفوقة، وكان واضحاً أنهم ينعمون في ظل سحره الطاغي، بكامل البهجة والإنشراح.

بان الافتتان على الممثلتين. وأخذت إيفون تراقبهما وهي تشعر برغبة في تمزيق وجهيهما الرائعين، واقتلاع شعرهما المصبوغ من جذوره. وما لبثت أن رفعت حاجبيها الدقيقتين وقد انتابتها الدهشة من هذه الرغبة المدمرة التي شعرت بها.

قال آدم مهدداً بصوت مخيف في رقته: «إيفون. انتبهي.»

شهقت متصنعة الذعر الشديد، وضحك كل من في الغرفة حتى الممثلتين كذلك. فقد بدت في غاية من الجاذبية وخفة الروح. ولكن آدم لم يضحك أو يتأثر وهو يقول: «إننا على وشك أن نبدأ بالقراءة.» كان واضحاً أن صبره كان على وشك النفاد.

قالت بمثل لهجته: «إنني منتبهة لذلك.»

www.liilas.com

نظر إليها بعينين قاسيتين في برودتهما مكرراً: «ان عليك قراءة الافتتاحية.»

قالت بحرارة: «لي الشرف بالنسبة لهذا السيناريو الرائع.»

كان فمه مشدوداً والكلمات تتفجر منه: «ألا تظنين انه من الأفضل ان تفتحي نسختك؟»

لم تتحرك إيفون إزاء نظرة ملك الشتاء الشبيهة بنظرة الصقر. كانت تبتسم بنعومة، ثم قرأت له الافتتاحية دون أي خطأ. جلس جامداً. واسرع الآخرون في الاشتراك بذلك. دامت القراءة حوالي الساعة والنصف. وبقي السيناريو الذي وضعه أمامها مغلقاً طيلة الوقت.

أخيراً، توقف آدم عن القراءة وهو يقول لكل من كان موجوداً، دون ان ينظر إليها: «شكراً لأدائكم الجيد.»

ثم بدأت فترة الاسئلة والاجوبة. وسأل كل واحد منهم باسمه، ثم انتهى الاجتماع. لقد كانت شهرته في ضبط النفس ليس لها مثيل، وكانت هي تتطلع إلى إسقاطه من تلك الشهرة.

عندما طاف عليهم يستعيد نسخ السيناريو، توقف أمامها قائلاً: «إن لك حافظة فوتوغرافية.»

لم تكن لهجته التهكمية باكثر مما تستحق، ولكنها مع ذلك كانت لاذعة.

أجابت: «كلا. بل ذاكرتي مرغمة تماماً على ذلك.»

فكر لحظة في ما ينبغي أن يقوله، ثم نظر إليها بحدة قائلاً: «أظنك فعلت ذلك إستفزازاً لي؟»

قالت: «انها الحقيقة.»

قال بصوت هادىء وقد بدت الصلابة في نظراته: «ولماذا تفعلين ذلك؟»

أوشكت شفتاها على الارتجاف، ولكنها سيطرت عليهما. لقد ضايقته، واستعمل هو إزاءها طرق التهديد، وذلك على مدى ساعتين. ولكن، الآن فقط، عندما انتهى كل شيء، بدا غاضباً حقاً. ولما لم تستطع أن تخمن السبب في ذلك، قالت محاولة الانسحاب: «إنني أشعر بالجوع والظمأ، وعلي مواجهة مؤتمر صحفي حالما أخرج من هذا الباب. دعني بمفردي يا آدم.»

حدق فيها بوجه مظلم، ثم استدار خارجاً من الغرفة بخطى سريعة. فتنهدت ثم غطت عينيها المتعبتين بيديها.

شعرت بلمسة خفيفة على كتفها، ونظرت من فوق يديها لترى احدى تينك الممثلتين، الأصغر سناً واسمها سالي تقول لها باسمة: «إنني فقط أريد ان أعبر لك عن سروري بمقابلتك. إنني معجبة بك جداً.»

ان هذه المرأة تعني حقاً ما تقول إذ تبدو عليها البراءة. وكانت نفس إيفون، هذه اللحظة، تتملكها الثورة والكآبة، واستجمعت ما يمكن ان يكون قد بقي في نفسها من رقة أو لطف، لتقول لها بابتسامة حلوة: «شكراً لك. إنني متشوقة للعمل معك. وعندما ننتهي من ذلك، لا بد أن نصبح صديقتين، أليس كذلك؟»

من أعماق الذاكرة، عاد إليها صوت يقول: «نحن الاثنان، لن نكون صديقين أبداً يا إيفون...»

نهضت وقد تصلب جسدها من طول الجلوس، وخرجت

www.lilas.com

لتتحدث الى مندوب العلاقات العامة الذي كان ينتظرها ف
المكتب القريب، ثم رافقها الى حيث ينتظرها حوالي
عشر صحفياً. كان مؤتمراً صغيراً محدوداً قد نظم بمهار
وأدركت أن آدم وراء ذلك.

كان هناك منضدة وكرسي وأنوار قوية. جلست إيفو
على الكرسي مثل ملكة تجلس على العرش بثياب ر
وحيّت الصحافيين الذين تعرفهم بأسمائهم. وسرعان
وقعوا في حبها مرة أخرى. وسطعت أنوار آلات التصو
وبدأت الأسئلة تنهال عليها.

رفعت يدها النحيلة وهي تبتسم مظهرة سرورها لم
بينما ساد الصمت بينهم وهي تقول وعيناها الداكنتا
تتراقصان: «سنقوم الآن بلعبة، وهي أن تسألوني ما يدا
أما أنا فاجيب بنعم أو لا. ولنرى الآن كيف ستتعاونو
معي.»

تأوه الصحافيون الذين يعرفونها بطريقة مسرحية
كانوا يعرفون ألاعيبها. انها ستغيظهم وتتحايل عليهم دو
خجل. وحدثت نفسها، كوني كريمة إزاء بعض الأسئ
واصمتي إذا كانت الأسئلة شريرة أو وقحة متجاوزة الح
إنهم جميعاً مهنيون يقومون بعملهم.

ابتدأت الأسئلة. فكانت تسكت أمام الأسئلة التي لا تستط
الإجابة عليها بنعم أو لا، وهكذا احتفظت بسر اقامتها ف
مونتانا. في الوقت الذي لم يكن لهم الحق في أن يبد
الاستياء. لقد استفهموا، في الحقيقة، عن أشياء كثير
وابتدأ بينهم التنافس على إلقاء أقوى الأسئلة. وأكثره
مهارة.

أخيراً، جاء السؤال الذي كانت تنتظره، إذ صاح واحد منهم لا ينقصه الذكاء والوقاحة: «يا آنسة ترنت. أصحيح أنك تقدمت من رجل غريب عنك كلياً وصفعته، وذلك في أثناء حفلة كان يقيمها والدك؟»

أجابت بوجه باسم: «نعم.»

عاد يسأل: «هل كان السبب هو سوء تفاهم كما قال وكيل أعمالك؟»

أجابت: «كلا.»

سأل مرة أخرى: «هل صحيح أن ضحيتك هذا هو آدم ريوارك «الرجل الثلجي» الذي هو الآن المدير المتقذ والمخرج لفيلمك الجديد؟»

«فيلمي الجديد؟» وابتسمت لهذه الفكرة وهي تجيب عن السؤال بقولها: «نعم.»

سألها آخر بادي الغباء: «وماذا فعل هو عندما صفعته؟»

ضحكت بمرح. في حين كانوا الصحفيون يغطون أفواههم بأيديهم يخفون ابتساماتهم.

صدرت حركة خفيفة من خيال أسود لاح خلف مكان جلوس الصحافيين. وضاقت عينا إيفون من وهج الضوء القوي. كان ملك الشتاء مستنداً الى الجدار الخلفي صامتاً كتساقط الثلج في منتصف الليل.

سألها آخر: «وهل انتما الآن متفقان؟»

يا لهؤلاء! ما أشد عماهم. ذلك ان كل انتباههم كان مشدوداً إليها، والى النار والظلال اللذين يكتنفانها.

ابتسم آدم لها.

دست يدها في جيب سروالها الرث، وأخرجت قطعة نقد

www.lilas.com

معدنية ورمتها إلى أعلى ثم تلقتها بقبضتها. وأخذ الجميع يقهقهون ضاحكين وهي تلطمها بكفها على المنضدة ثم تحدق فيها غير مصدقة. وارتفع حاجباها حتى كادا يلامسان منبت شعرها، ثم قالت بحيرة: «نعم؟»

وزلزل هذا الجواب الأجواء بالهتاف والتصفيق.

الفصل الثالث

لم يغضب آدم قط لمسرحيتها الصغيرة هذه. وفي الحقيقة، لقد ضحك بنفس الطريقة الذي ضحك به الآخرون.

لمعت عيناها سخطاً لفترة قصيرة، سرعان ما دفعته إلى أقصى زاوية من ذهنها، من حسن حظها أن هذه الهفوة قد ظهرت عليها في غفلة من آلة التصوير. إذ أنها كانت تعلم قبل أي شخص آخر خطورة أية غفلة منها أمام هؤلاء الذين يترقبون منها، كسمكة القرش، أية زلة أو هفوة مهما كانت.

انتهى المؤتمر بعد فترة قصيرة، بعدئذ تقدم آدم مجتازاً الغرفة ببطء. وصمت الصحفيون، الواحد تلو الآخر، بعد أن انتبهوا إلى وجوده المتلصص. وأخذت إيفون تنظر إليه باحترام جم. كان وجهه الناطق بالرجولة واضحاً مسالماً، وجسمه المكسو بالسواد ينطق بالعزم. كما كان فمه غامضاً مبهماً.

تجاهل الأسئلة التي تعالت، وسار نحو إيفون بخطوات واسعة، وكان الجو مشحوناً.

رفعت وجهها تنظر إليه. كانت عيناه البارزتان تشعان برغبة عميقة. وهب شيء في أعماقها محذراً، ولكن، بعد فوات الأوان. ذلك أن آدم وضع على ذراعها يداً صلبة عنيدة وهو يقول برقة: «حان وقت ذهابك يا عزيزتي.»

www.lilas.com

انفرجت شفتاها الجميلتان، ولم يسمح لها بوقت للكلام بل طوّق ساقيه القويتين ومن ثم سحبها إليه شعرت بنفسها تقذف في الهواء لتستقر، بهلع، مقطوعة الأنفاس، على كتفه الذي من الصخر. وماج شعرها الهفهاف حول رأسها. ولف ذراعه حول ساقيها، كما يفعل رجل المطافىء، فمضت تحدق في ظهره وقد لامست أطراف شعرها باطن ركبتيه.

ماج المكان بالقهقهات والهتاف. وسمعت رنين آلات الهاتف المنقولة، خلال ذلك كله، بأذنيها. وفي الوقت الذي تمالكت فيه نفسها واستطاعت أن تصرخ: «ما هذا؟» كان آدم قد خرج من الغرفة وتمتم قائلاً: «يا للصحافة الطيبة.» وتغلغل صوته الهادىء العميق في أنحاء كيانها ليمر كل ما قد تكون حاولت القيام به من ضبط النفس.

كانت تعلو وتنخفض مع كلّ خطوة يخطوها. وازاحت شعرها إلى جانب مائلة عنقها لتستطيع أن ترى الفوضى والهرج والمرج اللذين خلفهما آدم وراءه.

في هذه اللحظة، لمحت مصورين يحاولان الإندفاع من خلال الباب، ونظر أحدهما إلى الآخر، ثم حاول كل منهما الإندفاع أولاً بالقوة إلى أن تغلب واحد منهما على الآخر، ولكنه فقد توازنه ليسقط على الأرض كقنطار من الحجارة. واغتنم زميله الفرصة فخطا من فوقه، ولكنه سقط عليه. وكان آدم قد توقف عند نهاية القاعة ليضغط على زر المصعد. وفي هذه الأثناء فتحت الأبواب ليندفع منها إثنان من المصورين، وابتدأت إيفون تضحك وتضحك.

انغلق باب المصعد، وتساءل آدم: «هل التقطوا صورة؟»

قالت وهي تكتم فرحتها: «كلا.»

قال: «هذا مؤسف. كفي أنت عن المقاومة. اللعنة على ذلك.» ازدادت مقاومتها وقالت: «انزلني إلى الأرض.»

قال: «كلا.» فقرصت فخذه بقوة. فتح باب المصعد في الوقت الذي كان يصفعها فيه على قفاها لتعوي كجرو صغير.

سار بها خلال الممرات حيث مكاتب الاستديو. شعرت وكأنها على وشك الإنفجار، وصرخت به: «إلى أين تأخذني؟»

قال بهدوء: «لنتناول العشاء.» وأومأ بالتحية لإثنين من رجال الأمن وحارس بملابسه الرسمية كانوا قد استداروا يحملقون بهما. وتوقف برهة ليسوّي من وضع المرأة على كتفه.

هتفت به: «يا للجرأة. إن أبي ينتظرني ليأخذني إلى البيت.» كانت تأمل أن يتحرك هؤلاء الرجال إزاء الجريمة التي ترتكب تحت أنظارهما ولكن رجلي الأمن اندفعا إلى الإتجاه المعاكس خارجين من المكان بينما اختبأ الحارس المذعور وراء آنية نبات ضخمة.

أجابها رجل الثلج الذي شدّد من قبضته على ساقيها اللتين كانتا ترفسانه: «يا إلهي ما أكثر حركاتك. لقد أرسلت أباك إلى البيت. وإن لم تكفي عن كل هذا يا إيفون، فقد أسقطك على رأسك.»

قالت بحدة: «لا يمكنك ذلك. إنني سأقيم عليك دعوة قضائية.» فضحك وهو يخرج من الباب إلى حيث كانت شمس جنوب كاليفورنيا الخريفية تسطع بحرارتها اللاهبة.

www.liilas.com

قالت إيفون: «آدم.» وبان شيء طفيف من التردد الخ في صوته وهو يجيب: «نعم.»

قالت: «إن رأسي ينبض بشدة ووجهي يلتهب.»

توقف على الرصيف وهو يقول: «إذا أنا أنزلتك قر تعديني بأن تتعشي معي وتتصرفي كفتاة طيبة؟»

فكرت، هل ستتصرف كفتاة طيبة؟ فتاة طيبة؟ وصرّ على أسنانها. لا بد أنها ستكون بحاجة إلى طبيب أسنا عندما ينتهي هذا الفيلم. كان لا يزال بانتظار جوابها، وأخيراً قالت بخضوع: «نعم يا آدم.»

لا بد أن تمر بأي رجل ذكي، لحظة حماقة، لقد أنزلها بلطف ليتوقف تصاعد الدم إلى رأسها حين وقفت على قدميها، بينما تناثر شعرها على كتفيها.

www.lilas.com

كرجل جائع دعي إلى وليمة ملوكية، أدخل آدم يديه في شعرها الكثيف الرائع، وأخذ يزيحه عن وجهها الملتهب وما أن نظر إلى شفتيها الشاحبتين وعينيها اللتين كانتا تقدحان شرراً، حتى قفزت بعيداً عنه برشاقة صقر قد غلبه نشوة الظفر. واخذت تضحك مبتهجة. فالرجل الذي تركته لن يستطيع أن يطاردها بعد الآن. وتبعها هو في ممر غريب متشعب إلى أن حجزها بين سيارتي ليموزين.

مرر يده بشعرها الذي تفخر به وجذبها بخشونة إليه مما جعلها تزعق كطير وقع في الفخ.

جذبها إلى صدره، فشعرت بحرارة ورجفة. شعور غريب بالإنتعاش. ومع انها لم تكن خفيفة الوزن، فإن هذا الرجل الذي حملها كان يتنفس بصعوبة بينما كانت تشعر بنفاد قلبه وكأنها ضربات المطارق تنهال على كتفها.

همس في أذنها: «إيفون.»

تأوهت وهي تجيب: «ماذا؟»

قال: «إنني جائع وظمآن. هل لك بتناول العشاء معي؟»

شعرت بالتوتر يتلاشى منها، واستندت إلى صدره القوي. لقد عاد الصقر أخيراً إلى وكره.

تمتمت دون وعي: «لا بأس.»

اهتز جسده. ظنت أنه يضحك وقال: «لماذا لم تتصرفي معي بهذا الشكل الأسبوع الماضي عندما أوشكت أن تحرقي نسختك المخطوطة؟»

قالت دون أن تنتبه إلى شدة احتضانه لها وإلى شفتيه تمران فوق وجنتها: «لا أدري. قد يحدث هذا أحياناً. وأحياناً لا.»

أدارها إليه، ووضع ذراعه حول كتفها وسار معها مقصراً من خطواته لتتناسب خطواتها بينما كانا يعودان ليدخلا موقف السيارات.

اختلست نظرة إلى جانب وجهه، لترى أن ملامحه خالية تماماً من أي اضطراب أو انزعاج، وأنه بصفائه المعهود أبداً. ورأى نظرتها تلك فسألها: «هل أنت دوماً بهذا الطبع المعاكس؟»

قطبت جبينها بقوة وهي تقول باستسلام: «منذ وعيت الحياة.»

قال وعيناه الرماديتان تتألقان: «إنني أذكر عندما رأيت أول صورة فوتوغرافية لك. كان منظرك ساحراً. كنت ضئيلة الجسم ملتصقة بأمك، بينما عيناك الكبيرتان الداكنتان تحدقان في الكاميرا بنظرات عدائية لعوب ودهشة طبيعية.»

استدارت إليه بشعرها الأشعث وقد بدت عليها نفس
النظرة الحائرة التي ذكرها، وقالت بشك: «هل كنت مشتركاً
في مجلة «فوغ» تلك؟ في أي سن؟ الثالثة عشرة، الرابـ
عشرة؟؟»

ارتعش فمه. كانا قد وصلا إلى سيارة «بي. أم
فضية، وأخرج المفاتيح من جيبه ليفتح بابها، وهو يقو
«كنت في الرابعة عشرة، ولم اكن مشتركاً بالضبط ولكن
حدث أن اشتريت تلك النسخة.» وظهرت السخرية في لهجـ
وهو يتابع «وكنت أكابد مشقة حبي الأول. وإذا أنت أخبرت
والدتك فيفيان بذلك، فسأشنقك.»

وجدت إيفون نفسها تستغرق في الضحك وهي تتهالـ
في مقعدها. يا إلهي، كيف أمكنها أن تشعر بمثل هـ
الإرتياح مع شخص هو عدوها؟ لقد كان شخصاً كريـ
بالتأكيد، ولكن ما الضرر في عقد هدنة مؤقتة في فتر
العشاء البسيطة هذه؟

جلس في مقعد القيادة، ومن ثم شرعت السيارة في
السير. وأخذت تسرح شعرها بأصابعها محاولة تنظيـ
قدر استطاعتها، محاولة عبثاً، فك عقدة عنيدة فيه.

توقفت السيارة عند البوابة الخارجية، ولوح بيده إلى
الحارس الذي أومأ برأسه ثم رفع حاجز البوابة، لتنطلق
السيارة منها. ألقت نظرة على الرجل المسترخي إلى جانبها
بهدوء، ثم أخذت تتمتم شيئاً عن وجوب تفتيت الثلج. ورمقـ
بنظرة قصيرة سرعان ما انفجر بعدها ضاحكاً. فازداد
حدة وهي تسأله: «لماذا تضحك؟»

قال متنهداً وعيناه تلمعان: «أنظري إلى نفسك حيـ

تجلسين وقد ظهر سوء طبعك في عبوسك هذا، تتمتمين
بتعويذة شريرة ثم تنفثينها في أشعة الشمس من خلال
شعرك. إنك إمرأة تتعاطين السحر وخطرة على المجتمعات
المتمدنة.»

قالت باستياء بالغ: «إنني أحب هذا. لقد عقدنا
اتفاقية على تناول عشاء بسيط، فلا تغتنمها فرصة
لإلقاء الإهانات بوجهي. اللعنة، أوقف السيارة فقد غيرت
رأيي.»

قال وهو يضاعف من سرعة السيارة لتندفع في الطريق
الرئيسي: «هذا حظ سيىء. لقد سبق ووافقت على ذلك، ولن
أسمح لك بنكث وعدك هذا. لم يعد لك الخيار الآن.»

قالت بحدة وعيناها تقدحان شرراً: «لم يكن لي خيار في
ذلك.»

كانت قد صممت على إلقاء نفسها في أتون الغضب
وأفلحت في ذلك تماماً.

أجاب ببرود وهو ينظر لامتداد الطريق أمامه: «كلا، إنني
أعلم ذلك.» وفجأة، ومع أن المسافة بينه وبينها لا تتعدى
بضعة سنتمترات، شعر بنفسه بعيداً جداً عنها. كانت منزعجة
ومتضايقة، وتخفي حيرتها في نظرة تأملية. وتابع قائلاً:
«إنك ثائرة أبداً على أية سلطة أو قوة لي. إنها غريزة فيك،
وتصرف تلقائي لاإرادي منك. أليس كذلك؟ هل هذا أيضاً
جزء من السبب الذي جعلك، في النهاية، تهربين من المهنة
التي أعداك لها والداك؟»

انفجرت قائلة بذعر: «ماذا؟» وما لبثت أن ابتسمت وهزت
رأسها لتستطرد: «كلا، يا إلهي، إنك تمسك العصا من الجانب

www.lilas.com

الخطأ، أليس كذلك؟ كلا. لقد كان والداي دوماً يحبانني ويرشدانني ويساعدانني. وأنا معجبة بهما إلى أقصى حد حتى أنني، عندما كنت في السادسة من عمري وكنت عنيدة شديدة الخوف، قد استمتعت كثيراً بالتمثيل مع أمي وطلبت أن يسمح لي بذلك مرة أخرى.»

سألها: «هل امتثلا لطلبك؟» كان مبدياً عدم الاهتمام كعادته في أكثر الأشياء، وكأنه بعيد جداً، أو كأنه من عالم خرافي، وكان الحديث إليه بنفس السهولة التي تتحدث فيها إلى نفسها.

أجابت: «بل كانا مسرورين بذلك. ولم تكن المدرسة كافية لطموحاتي، كما أنه كانت لي ثلاث مربيات بالتتابع وهكذا تعاقدا مع وكيل، وعملا على أن أعيش حياتي ولكنهما كانا يراقبان بدقة عدد الأفلام التي كان مسموحاً لي بأن أمثلها. كنت أنال كل ما أريد.»

قال وهو يرمقها بعينين لامعتين: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

ظهر على ملامحها التهكم وهي تقول بجفاء: «لم يحدث شيء. لقد جاء الأمر صدفة. إن كل ما حدث في حياتي، وكل شيء أتى بنتيجة خاطئة، إنما كان نابعاً من ذاتي، وهذا غريب. ولكن، قد يمنحك والداك كل شيء في العالم ولكنهما لا يستطيعان أن يرشداك إلى ما يجب أن تفعله به. إن هذا شيء ينبغي أن تتعلمه بنفسك.»

هز رأسه ذو الشعر الكثيف الضارب إلى الحمرة وهو يقول: «إنني لا أصدقك.»

رفعت حاجبيها بذعر وهي تسأل: «بالنسبة إلى والدي؟»

أجاب بهدوء: «عن أن كل شيء كان خطأ في حياتك قد تسببت فيه أنت. لقد سمعت قصصاً مفزعة عن آخر سنة اشتغلت فيها، وذلك من بعض ذوي المهنة الذين لهم علاقة بالإخراج. ومن ذلك يتبين أنك غير مسؤولة عما حدث وما كان في إمكانك أن تتلافيه.»

سرحت إيفون في أفكارها. لقد شعرت كأنه غاص إلى أعماقها واستخرج ما فيه، وأخافها ذلك بقدر ما ساءها. إن كلماته الهادئة فقط، كانت تعيد إلى ذهنها ذكرى الشرك الذي نصب لها في السنة الأخيرة تلك، من عقود والتزامات وواجبات عليها تأديتها، ومتطلبات، كثير من المتطلبات... كانت غارقة في بحر من المتطلبات، عندما شعرت، فجأة بأن كل ذلك يجب أن يذهب إلى الجحيم.

شحب وجهها بشكل هائل وتحجرت نظراتها. وقالت بحدة: «كلا؟ ربما كان الأمر كذلك، ولكن أمر التعامل مع كل ذلك كان عائداً إليّ أنا.»

أوقف السيارة، ثم جلس متجمداً، وقد عاد بذاكرته إلى تلك السنة الكئيبة البغيضة، وتاهت نظراتها في الفراغ دون أن تنتبه لما حولها. وعاد آدم يقول وهو ينظر إلى يديه القابضتين على عجلة القيادة: «وأنت تشعرين، على نحو ما، بأنك لم تفعلي ذلك. ولكنني رأيت هذه الأفلام التي مثلتها تلك السنة، يا إيفون. وإن نوع تأديتك لعملك كان مقنعاً تماماً. فأين الفشل في ذلك؟»

أجابت بذهن شارد وهي تلوي بأصابعها خصلة من شعرها: «حسناً، هنالك سؤال، أظن أن الأمر ابتدأ بأشياء طفيفة. فقد كنت نسيت، مرة، ما كنت أتحدث عنه أثناء حفلة.

www.lilas.com

وحدث مرة أن صدمت بسيارتي الإشارة الضوئية، وعندما استعدت وعيي لم أتذكر إلى أين كنت ذاهبة، وماذا كنت أفعل. كنت أحياناً في غمرة تمثيل الدور، وإذا بالذعر يكتنفني وأنا أشعر بذهني كالصفحة البيضاء، أو أخاف من أن تكون السطور التي أرددها تابعة لفيلم آخر. وآخر مرة، وكانت الأسوأ، عندما استيقظت دون أن أتذكر إسمي ولا إسم البلد الموجودة فيه.»

كان تنفس الرجل الجالس إلى جانبها قد هدأ في أثناء إدلائها بتلك التجارب التعيسة. وما لبث أن تنفس بعمق وهو يقول بصوت أجش: «أظنني أستطيع التكهن بالبقية. فقد كانت النهاية. كان عليك أن تنهيها، لكي تنقذي نفسك. لقد فقدت شخصية إيفون في مواجهة كل تلك الشخصيات التي أرادوك أن تتقمصيها.»

قالت بشراسة لم تستطع كبحها: «نعم، ونعم، ونعم. والآن، إذا كنت قد أرضيت فضولك فقد تحدثت أكثر من اللازم في هذا الشأن ولا أريد أن أتحدث عنه مرة أخرى.»

قال آدم برقة: «إذن، فلن نعود إلى ذلك.»

فكت حزام الأمان حول وسطها، وترجلت من السيارة لتركض وتركض دون وعي، ثم توقفت، بعد ذلك، وسط دهشة كانت من الشدة بحيث هزتها بعنف أخرجتها من حالتها النفسية المظلمة تلك.

تطلعت حولها: أكانا على الشاطئ؟ ماذا؟

كانت تقف في منتصف السلم الخشبي الذي يؤدي إلى المحيط الباسيفيكي، حيث منظر المحيط المتألق والسماء

www.lilas.com

الزرقاء الفسيحة، رائع الجمال. وتنفست الهواء النقي بعمق بينما طيور النورس تحوم فوق الرؤوس وتزعق بصرخاتها، وأشرقت ملامحها المصممة بابتسامة تعبر عن رغبة جامحة. الحرية، الحرية. لقد كانت الحرية حولها وفي داخلها. وأسرعت تهبط بقية الدرجات وهي تشعر بالدوار والسعادة لهذا التصميم.

بالكاد توقفت عن هذا الإندفاع المتهور لكي تخلع حذاءها وترفع سروالها إلى ركبتيها، ثم تابعت سيرها لتصل إلى المياه وتراقب زبد الأمواج تتكسر عند قدميها.

كانت بمفردها لفترة. وفي النهاية إنسحبت بعيداً عن حركة المد، وجلست على الرمال الجافة، تراقب حالمة، إنعكاس أشعة الشمس الغاربة على صفحة المياه. وقد ظهرت على وجهها أولى امارات السكينة التي عرفتها منذ عودتها إلى «لوس أنجلوس». عندما جاء آدم ليجلس بجانبها.

تمتمت بعتاب دون أن تنظر إليه: «لقد وعدتني بعشاء.»

قال برعونة: «إنك غيرت رأيك.»

نظرت إليه غير مصدقة وهي تبتسم إبتسامة عريضة، لتقع أنظارها على شيء يحمله بيديه الاثنتين ثم انفجرت ضاحكة.

لا بد أنه كان يحتفظ بملابس إضافية في سيارته، إذ أنه بدّل قميصه الأسود بقميص أبيض مقفول، وناولها ساندويش لحم وعلبة عصير كان قد اشتراهما من بائع قرب المكان الذي أوقف فيه سيارته.

أخذت تنقل أنظارها بين الشراب والطعام وهي لا تعرف بأيهما تبدأ، وما لبثت أن بدأت بالتهام الساندويش وهي تمسح علبة العصير بطرف قميصها قبل أن تفتحها.

قالت له وفمها محشو بالطعام: «إنك تدهشني، لا أدري لماذا، ولكن هذا هو الواقع. لقد توقعت أن تحضر لي شيئاً أكثر من ذلك من...» فأكمل كلامها بابتسامة ساخرة: «المطعم الكبير. إنني أحب المطاعم الجيدة، ولكن بالنسبة لحالة ملابسك، فكرت في أنك قد تتضايقين من تناول وجبة بثلاثة أنواع، عدا الشراب. طبعاً، ربما كنت مخطئاً في ذلك.»

قالت ببطء وهي تنظر إلى وجهه الهادئ، بعينين ضيقتين: «إنك نادراً ما تخطئ، فأنت رجل ذكي. لماذا تركت التمثيل؟»

قال ببساطة: «ذلك لأنني لا أملك الوقت الكافي للتمثيل والإخراج معاً.» كان ينظر إليها بعينين شبه مغمضتين يحميهما بذلك من أشعة الشمس، مما أظهر بوضوح الخطوط الدقيقة في زاويتي عينيه، والخطوط حول فمه الناشئة من الضحك. ورمقها بنظرة سريعة وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ملتوية: «لقد كنت ممثلاً جيداً، والآن أنا أفضل كمدير ومستمتع بعملي.»

قالت ببطء وهي تنظر إليه: «إنك مدير رائع وأنت تعلم ذلك.»

قال برزانة بالغة: «أوه، ولكنني أيضاً متواضع.»

ضحك ثم سألته: «وماذا عن والديك؟»

قال: «إنهما زوجان متفاهمان، وما زالا على قيد الحياة.»

قالت: «هل لك أخوة؟»

قال: «كلا، ولكن هناك جيش من أبناء الأعمام، على مقربة من موطني خارج ادنبرغ.»

كان قد أنهى طعامه، فجلس على الرمال مستنداً إلى كوعيه دون أن يبالي بحرارتها الحارقة.

عادت تسأله وهي ترسم دوائر على الرمال: «ولماذا اخترت أميركا للعمل؟»

ابتسم قائلاً: «ولم لا؟»

قالت: «ولكنك قلت ان موطنك هو ادنبرغ.»

ضحك قائلاً: «إنني آسف لهذه الزلة غير المقصودة إذا كنت ستعتبرين الأمر بهذا الشكل. ان ادنبرغ هو البلد التي نشأت فيه، ويعيش فيه والداي. عندي شقة في لندن، وعندي أخرى هنا في لوس انجلس. إنهما، بالنسبة إلي، مجرد سقفان يظللاني لأنني لا أطيق المكوث فيهما. إنني لم أطأ شقتي في لندن منذ ستة أشهر. أين هو موطنك الأول، يا إيفون؟»

أفزعها دورانه حول الموضوع، ونظرت إليه صامتة، وكمد وجهه عندما تحول الصمت إلى معنى بليغ، ثم ضحك وقال بصوت أجش: «ليس لك بلد؟ لا بأس، اعتذر لتطفلي.»

نظرت إليه من خلال أهدابها، ولم تستطع أن تفسر الدافع الذي ألجأها إلى أن تقول بغير مبالاة تقريباً: «لا أحد يعلم. لا أحد عدا والديّ وأخي دايفيد ووكيلي. لا

www.liilas.com

أحد أبداً في لوس لتجلس أو من الناس الذين اختلط بهم هنا.»

ساد الجو صمت آخر حولهما. كان يمثل، تقريباً، جو السلام الذي ساد بينهما على هذا الشاطئ. ثم قال بهدوء: «إذا كنت ستشاركينني، يوماً، ذلك السر، فلن أخبر أحداً. إنني أعدك بذلك.»

نظرت إلى الشمس الغاربة وشعرت أنه حقاً سيكون عند وعده. وقالت: «شكراً.»

عند ذلك، قال آدم: «هل كان ثمة مشكلات أو متاعب لكم في ذلك المكان الذي تسمينه موطناً؟» وضحك في وجهها برقة آسرة دخلت منها القلب.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ملتوية وهي تقول بينما لمعت عيناها بتهكم: «بعض الناس من ذوي الأهمية. ولكن ليس... ليس ثمة متاعب وأنت؟»

قال متكاسلاً بتهكم خفيف: «وأنا؟ كان هناك شيء من ذلك.»

قالت متأملة هي الأخرى وقد ارتخى جفناها: «خصوصاً في لندن، تبعاً لما تقوله الصحف. كان الأمر يتعلق بامرأة ما... مدهشة الجمال.»

قال بجفاء: «وتلك الامرأة ما... المدهشة... هي أيضاً عارضة أزياء ناجحة جداً. لها اسمها وهويتها الخاصة.»

هزت كتفيها دون اكتراث قائلة: «لا أتذكر ذلك.»

بدر منه صوت ينهي به موضوعاً ما وهو يقول: «كلا، ما كان لك أن تتذكري. على كل حال، لقد أصبحت جزءاً من الماضي.»

نفضت يديها من الرمال وهي تقول: «أريد أن أذهب إلى البيت الآن.»

قال: «خلال دقيقة واحدة.» ولكنها لم تحاول النهوض. ولكن، عندما مد يده ليمسك بمعصمها، حدقت فيها وهي تحاول أن تحمل نفسها على إظهار الاستياء، ولكنها سبق وقامت بحركات كثيرة لاستفزاز هذا الرجل، ثم بررت لنفسها، أن كل تصرفاته نحوها إنما كانت معقولة رغم كل شيء.

بقي مستلقياً على الرمال مظهراً استمتاعه بالجو الهادئ الدافئ. ولكن مزاجها كان قد تغير، فجلست متوترة تتأمل ما أمامها بعينين جامدتين لا تريان.

يجب أن لا تنظر إليه مرة أخرى. يجب عليه أن يبقى هكذا على الدوام، غارقاً في الذهب والورود وألوان الشفق، وملكاً مضطجعاً على بساط أصفر مرصع بالأصداف. لم يبق ثمة معارك ليخوضها ولا جيوش ليغزوها، رجل ثقته بنفسه لا تحد والعزيمة التي يبثها في كل شخص آخر يزيد من ثقة ذلك الشخص في طاقاته. ولم تستطع إيفون، وهي التي تحارب كل إنسان، أن تفهم ذلك.

كان واحداً من أولئك الأشخاص ذوي القلوب الذهبية، واحداً من أولئك الأفراد الذين يعملون للإصلاح في أي مكان يقيمون فيه، فإذا هي استمرت في صحبته مدة كافية فإنه سيصلح من أمرها هي أيضاً. فليس عليه أن يقوم بأي شيء، ذلك أن وجوده وحده كاف. ولكن، حيث أنه هو هو، وحيث أنها هي هي، فإنها ليس بوسعها أن تسمح بذلك.

www.liilas.com

تملكها القلق لتعدد وجهات نظرها في هذا الشأن، ثم فكرت مترددة، في طريقة شكلها معه التي بدت ضعيفة متهاوية. سألته بهدوء دون أن تنظر إليه: «آدم.»

نظر إليها مستطلعاً، فاستطردت هامسة: «إذا أنا طلبت منك، بجدية، أن تلغي العقد الذي بيني وبينك وتدعني أذهب في سبيلي، فهل تفعل؟»

ساد الصمت دقيقة أو دقيقتين قبل أن يجيب ملك الشتاء بصوت موسيقي دخل أعماقها وهو ينتفض واقفاً، ثم جذبها قائلاً: «كلا.»

نظرت إليه بأسى صامت. لقد كان رائع الوسامة والصلابة أيضاً، وكذلك العناد. ومع ذلك، كان في استطاعته دوماً أن يصل إليها، ولو كان ذلك المحيط بينهما.

نظر إليها برقة لا تقاوم، ثم قال: «إنني لن أقيدك ولن أحاول تغييرك ولن أكبح روحك المتعنتة. أو أحاول صبك في قالب آخر. ولكنني سأحتفظ بك يا إيفون. سأحتفظ بك.»

قالت بحدة وقد اهتز صوتها: «حالياً فقط.»

قال موافقاً: «نعم. حالياً فقط.»

كان غريباً أن يضعها تحت المراقبة. ولكن كان في ذلك الصوت المخملي عطفاً صادقاً... عطفاً يمنحها إياه في اقراره، شفهياً، باختصار العقد الذي بينهما وإنهاء علاقتهما. لم تستطع أن تتصور كيف يمكنه أن يفرض عليها شيئاً تكرهه، ثم تقبل هي به. لقد قام بذلك بتصرفه الرقيق. لقد فعل ذلك، ولكنها لم تستطع أن ترى كيف ولماذا وبماذا فعل ذلك.

انتهى ذلك العشاء المتواضع، ولكن نتائجه كانت لا تحصى.

لقد ألقت بكل الحقائق جانباً، واندفعت، بكل طيش، تعاود المعركة مرة أخرى. لقد ابتدأت باستفزازه، ودفعته الدهشة إلى أن يقابل حدتها بمثلها.

أثناء الطريق إلى بيتها في بيفرلي هيلز، كان فمه مطبقاً صارماً وحاجباه الداكنان مقطبين. أما هي فقد كان يبدو عليها الإنشراح لتميزها هذه الهدنة القصيرة التي نشأت بينهما.

ترجل من السيارة بعدما ترجلت هي. ورأته بطرف عينها ينتصب في وقفته، فاستدارت إليه تجابهه بحدة قائلة: «لا تكلف نفسك عناء مرافقتي إلى الباب. إنك غير مدعو.»

أدار إليها رأسه الخمري الشعر، وهو يقول بهدوء مهيب ينذر بالخطر: «أقفلي فمك يا إيفون. أقول أقفلي فمك.»

تساءلت، أتراها تجاوزت الحد في صده؟ هل كان هذا ما تريده حقاً.

ترددت. كان ينبغي عليها أن تحسن التقدير، واستدار حول السيارة بشموخ، ثم جذبها بعنف فابتعدت عنه بسرعة وهي تصرخ فيه: «إنك لا تعرف سوى استعمال قوتك كرجل، أليس كذلك؟»

زمجر قائلاً: «إنك المرأة الوحيدة التي قابلتها في حياتي التي تتسبب لنفسها بهذه المعاملة.»

فكرت، كم يبدو رائعاً وهو ثائر بهذا الشكل. وسارا بكبرياء، خطوة تقابل خطوة، ونظرة تقابل نظرة ومسافة ثلاثة اقدام تفصل بينهما، حتى وصلا إلى الباب.

فتح الباب قبل وصولهما إليه، ولا بد أن اصواتهما قد سمعت بشكل أفضل من جرس الباب. ووقفت بيتي أمام

www.lilas.com

الباب وقد بدت عليها الدهشة لرؤية الرجل الذي سبق وأطار عقلها من الخوف في الأسبوع الماضي. وهتفت: «السيد ديوارك، كيف حالك اليوم؟»

أجاب مزمجراً: «بأسوأ حال.» وكان منظره وملامحه توحي بالخطر.

كان تبادل الأدوار واضحاً. فقد نفد صبر إيفون وصرخت بحدة حقيقية وليس تصنعاً كما اعتادت من قبل: «يا إلهي. إنه لا يمزح.»

صرخ فيها: «وماذا غير ذلك تريدينني أن أفعل يا امرأة.»

قالت: «أن تعود إلى منزلك.» وقفزت إلى الداخل وهي تدفع الخادمة من أمامها، ثم تصفق الباب في وجهه بشكل بدا معه وكأن المنزل كله يهتز.

برزت والدتها فيفيان ورأت النظرة العاصفة في عيني ابنتها وهي تقف تسند الباب بظهرها، وصدرها يعلو ويهبط وهي تبسط ذراعيها وكأنها تحمي البيت من غزو محتم، ثم قالت بابتهاج: «ها قد وصلت إيفون إلى البيت.»

قفزت إيفون وهي تسمع هدير سيارة (البي. أم. دبليو) وهي تبتعد. قالت الخادمة التي كانت ترتجف بجانبها: «أوه يا آنسة ترنت، إن طباع ذلك الرجل فظيعة عندما يغضب. لماذا تكثرين من استفزازه؟»

أجابت إيفون بلهجة حالمة وهي تسند رأسها إلى الباب: «ذلك لأنه يضايقني.»

الفصل الرابع

مضى الشهر الأول من العمل في الفيلم والجميع في دوامة تستمد طاقتها من معين لا ينضب.

كان هذا المعين محطة لتوليد طاقة لا يصيبها الإرهاق. ولها إسم ووجه، والإثنان كفيلان بمنع النوم الهادىء. وكان اشتراك آدم في الفيلم قوياً متعدد الجوانب، وكانت شخصيته تتغلغل في كل شيء تراه إيفون.

لم تكن في حاجة لرؤيته، فشخصيته كانت حاضرة في كل أمر. أثناء الأسابيع التالية التي مرت على عشائهما ذاك على الشاطىء. لقد كانت تشعر بذكائه المتألق الحاد وراء كل تصميم يقام، فهو يديرهم ويقودهم جميعاً، في المذكرات التي كانت تصلها ممهورة بإمضائه، عند اختيار أمكنة السكن، أو مخطط العمل الممتاز ومنهاجه الأخير وكل ذلك حسب الاحتياجات المتوقعة لكل فرد لكي يبقى الجميع في تنسيق وانسجام تامين.

لم تكن إيفون إمرأة عملية ولكنها كانت ذات خبرة. فقد سبق واشتركت في أفلام متنوعة وبالأخص واحد منها كان بمثابة كابوس في سوء تنظيمه وتخطيطه.

عجبت، حين اكتشفت أن آدم لم يكن فقط المدير، بل كان أيضاً المخرج المنفذ للفيلم. وقد علمت الآن، بفطرتها العميقة، أنه لا يكلف شخصاً آخر بعمل يستطيع هو أن يقوم به. كما أنه، إذا حدث وكلف شخصاً آخر بعمل ما، فإنه لا يثق

www.lilas.com

بإنجاز هذا العمل دون أن يراقبه هو شخصياً بهدوء وحدة محاذراً أي فشل قد يقع ليحاول تلافيه منذ البداية.

هذه الدقة في الإهتمام بالتفاصيل، في مشروع ضخم قد يسبب الإنهيار لأي رجل، كانت منهاجاً وضعه لنفسه أشبه بالعقاب، بأيامه السبعة القاسية على مدار الأسبوع. ولكن، كان يبدو أن ضغط العمل ينعش آدم. كان مثالاً للحيوية، رهيباً وهو يسير في طريقه هذا دون جهد. كأنه سيارة سباق تامة الإنضباط أو محرك رائع التزييت والحركة.

إنها لم تستطع أن تفسر، حتى لنفسها، لماذا تشعر بالجنون وهي تراه يقوم بكل هذه الأشياء بمثل هذا التفوق، وبدون جهد. لقد أعجبت بذلك في الحقيقة. وكانت تشعر بالرهبة إزاء صفاته البالغ وصبره الذي لا يقهر وكفاءته البعيدة عن التصديق.

هذا، بينما كانت هي عديمة الصبر وخالية من الكياسة بطبيعتها، وكان تسلط أهوائها عليها يحيرها أحياناً ويسبب لها الإرتباك. لم تكن، بطبعها، تميل إلى الانتقاص من شأن أي شخص أو شيء سوى نفسها. كانت مقاييسها للأمور لا تلين وكان هذا سر قوتها وضعفها. ولما كان تقييمه لها ذلك المساء على الشاطىء بالغ الصواب والفطنة، ربما كان في إمكانها أن تتجاوز ذلك بشيء من الرحمة، بالنسبة لأي شخص آخر. ولكنها، بالنسبة إلى نفسها، لا يمكنها التسامح. فقد كان حكمه ذاك، مشرّباً بالغطرسة، ولكنها قبلت منه ذلك. أما الذي لم تستطع قبوله فهو كيف نفخ فيها آدم ردة الفعل الثائرة تلك. لقد كانت تحترق شوقاً إلى تمزيق صورته المتفوقة، لتحطم تلك المسافة التي وضعها

بينه وبين العالم الخارجي، وأن تكرر ذلك الصفاء الذي يكسو ملامحه الوسيمة، لتحيله إلى لون الدم... وما لبثت رغباتها هذه أن أرعبتها.

لماذا شعرت بأنها لا تستطيع فهم ذلك، إلا إذا كان السبب هو إرادة خفية في أعماقها بأن تغيره قبل أن يغيرها. أن تسقط ملك الشتاء إلى عالم الموت والكوارث. أن تنزله من مقامه إلى المكان الذي يليق به ويستحقه بجدارة. أن تصل إلى ذلك البناء السليم لتجد مجموعة من الشروخ والعيوب التي لا تغتفر ليمكنها، بعد ذلك، أن ترمقه بنظرة حافلة بالازدراء والإحتقار، ثم تبتعد عنه سليمة من كل ضرر.

لم يستطع أحد آخر أن يكبح زمامها أثناء الأسابيع الأولى، سواها. فقد كانت تراجع نفسها دائماً، وترتجف من الصراع الذي يدور في داخلها، وكانت عيناها الكبيرتان الجميلتان تنطقان بالذعر. وملامح وجهها لا تعبر عن شيء. كما أن حركات جسدها الرشيق أصبحت يسودها التكلف.

لم تكن النتيجة دون معنى، بل العكس تماماً. ذلك أنها لم تنتبه إلى أن كل شخص يكون معها، عليه أن يراقبها باستغراب وحيرة.

كانوا مستغرقين في الترتيبات النهائية، بينما كان آدم يقود الممثلين أثناء التدريبات الأخيرة، وأثناء الساعات الطويلة المرهقة من المناقشات عن مجموع التفاعلات والأساليب. لقد كان كل منهم ينحني باحترام لموهبة الآخر، ولم يكونوا يستطيعون خلاف ذلك تحت قيادة آدم الحكيمة التي لا تخيب. وجدت إيفون هذه التجربة مذلة وغير عادية.

www.lilas.com

استغلت عطلة الأسبوع الطويلة التي سمح لهم بها، لتستقل الطائرة إلى منزلها. وكان عليها أن تعود صباح الإثنين. وفي أثناء تلك الأيام القليلة الثمينة، أخذت تفتش عن هرب مؤقت من الأحداث الشاقة العنيدة التي استحوذت على حياتها. ولكن، ليمتلكها الأسى والثورة حين لم تجد أية راحة حيث أنها أحضرت معها كل أفكارها عن صفاتها، واضطرابها، ومشاعرها الخائفة، وتفكيرها في آدم...

كانت مزرعة الدواجن ممتازة، وكذلك مدبرة منزلها، ومدير المزرعة وزوجته، كلهم كانوا في حالة ممتازة. وكان قطيع الخيول عندها المؤلف من خمسين حصاناً تحت التدريب، كانوا جميعاً بحالة ممتازة، خدم الإصطبل كانوا بحالة ممتازة، وكان الجميع مسرورين برؤيتها، بالطبع، وقالوا انهم يفتقدونها وسألوها متى ستعود إلى منزلها نهائياً.

كانت تعرف أنهم صادقون في عواطفهم تجاهها ويحبونها فعلاً، وكانت هي أيضاً تبادلهم حباً بحب إلى آخر خادم اصطبل طيب القلب مليء الفم بالشتائم. ولكن العطلة بدت لها غير محتملة بهدوئها وخلوها من الإضطرابات. لقد أحست برغبة في البكاء أو الصراخ لما شعرت به من فراغ. ولكن، بدلاً من ذلك عادت بالطائرة إلى فينيكس في أريزونا بعد ظهر يوم الأحد بنفس شعور الرغبة في الهرب الذي صحبها حين عودتها إلى منزلها. لقد شعرت وكأنها مذنبة يملؤها الإرتباك ولم تتعود أن تتكلف المزاج الحسن.

ألقت نظرة سريعة، ثم خرجت وشعرها معقوص بعيداً عن

وجهها المتوتر بشريط بينما غطت نظارتها الشمسية، القلق والإضطراب في عينيها.

كان ريتشارد، وهو زوجها في الفيلم، قد وافق على أخذها من المطار. وكان ذلك يستغرق أربع ساعات من الضاحية التي يقيمون فيها إلى المطار، بينما كان في استطاعتها أخذ سيارة أجرة بسهولة. ولكن ريتشارد كان إنساناً دمث الأخلاق ولم يظهر عليه أي اهتمام بطول رحلته تلك. ربما كان يتطلع إلى قضاء ساعات من الدعابة والغزل البريء بالنسبة لعلاقتهما التي أصبحا عليها.

لم يكن في امكانها التأكد من ذلك أبداً، حيث أنها، عندما وقفت أمام البوابة الخارجية، لم تجد له أثراً. شتمته في سرها، فقد كان حقاً ممثلاً موهوباً، ولكنه إنسان عابث بقدر ما كان دمث الطباع، ولا بد أن ما اتفقا عليه من استقبالها قد غاب عن ذاكرته الضعيفة.

استدارت مصممة على استئجار سيارة أجرة، عندما كانت تصطدم بجسم صلب مسترخ كان يقف خلفها.

كانت إيفون نادراً ما تلتفت خلفها لكي تنظر إلى رجل ما، وكان ريتشارد بمثل طولها تماماً، بصرف النظر عن نحافتها هي وضخامة عضلاته هو. ولكن، كان عليها أن ترفع نظرها لكي تنظر إلى ذلك الرجل الذي كان يقف خلفها.

توتر فمها للمفاجأة، وأفلتت من فمها، كالعادة، كلماتها غير المهذبة بقولها: «ما الذي اتى بك إلى هنا؟»

ابتسم آدم، ومد يده يأخذ حقيبتها من يدها. كان بارداً غامض النظرات هادىء الملامح كعادته على الدوام. وكان يرتدي سروال جينز ضيقاً باهت اللون وقميصاً صيفياً

www.liilas.com

رافعاً كمّيه إلى المرفقين. كانت ملابسه بعيدة عن التصنع والتكلف، وتظهر ضخامة صدره وذراعيه، والتفاف ساقيه كان، على العموم، مثالاً لجمال الرجولة في جسده... كذا ذهنه المتوقد، وحيويته، والهالة الأخاذة التي تحيط بشخصيته... وفظاظته التي تعذبها!...

قال بلهجة تهكمية: «مرحباً بك أيضاً، يا عزيزتي، لقد استمتعت بإجازتي. شكراً لك.»

بدا تنفسها، من خلال أسنانها، كالفحيح.

إن كل ما كانت تكبته طوال الأسبوعين الماضيين، وأي محاولة قامت بها للسيطرة على نفسها إزاء صعوبة طباعه، كل ذلك قد ذهب الآن، طار أشتاتاً... عصفت بها عينيه التين لا تستطيع إدراك كنه نظراتهما.

قالت تسأله بكلمات شديدة الوضوح مبطنة بالغضب: «ماذا فعلت بريتشارد؟»

أجاب وهو يرمقها باستغراب شديد: «لقد شددت وثاقه طبعاً، ووضعته على أقرب خط قطار. لماذا تحبين تمثيل دور البطلة المنقذة؟ يجب أن أحذرك من تقلب مزاجه، ذلك أن أية إمرأة تكون معه، هي حبيبة عمره.»

كانت تسير معه بخطى وئيدة نحو موقف السيارات، دون وعي منها، لتتجمد فجأة في منتصف الشارع، وقد شدت قبضتيها إلى جانبيها وأغمضت عينيها بشدة.

كانت أعصابها قد بلغت الغاية من التوتر، عندما تصاعد هدير سيارة أجرة بجانبها بعد أن ضغط السائق على الفرامل فجأة، وهو يطلق منبه سيارته.

قال آدم محذراً: «إنك توقفين حركة السير يا إيفون.»

اهتز جسدها، ثم استدارت تخطو نحو سيارة الأجرة. نظر إليها السائق بحيرة بالغة وهي تنزع عن عينيها نظارتيها الشمسية، لتقرب وجهها الثائر من خلال النافذة المفتوحة وهي تنظر إليه بجمود مزمجرة: «إرفع إصبعك عن المنبه أو أفعل أنا بنفسي ذلك.»

تضاءل الرجل في مقعده، وهو يفتح فمه ويقفله كسمكة اصطدمت بالشاطىء، وهو يقول مذهولاً: «ألست... ألست... يا إلهي، ألست أنت إيفون ترونت؟ إنني أعشق أفلامك. إنني آسف لفظاظتي تلك. إن زوجتي ستموت انفعالاً لو علمت بمصادفتي لك. هل يمكن أن أحصل على توقيعك؟»

تراجعت برأسها خارج النافذة لتسنده إلى حافتها مستسلمة. لقد كانت تواقة إلى الشجار مع أي شخص، وشعرت بخيبة أمل بالغة وهي تفكر، هل المفروض أن يتسامح المرء بالنسبة لفظاظة سائقي سيارات الأجرة؟

كان السائق يفتش عن ورقة وقلم ليمدها إليها بيد ترتجف. خطت هي جملة جميلة ثم وقعتها بإمضائها وأعادتها إليه. لا بد أنه سيكون في منتهى السعادة في أن يحملها بسيارته ليطوف بها حول العالم دون اهتمام بزوجته. واستدارت هي مبتعدة عن نظراته اللاهبة. وتبدلت الإبتسامة التي كانت قد رسمتها على شفتيها لتتحول إلى عاصفة مزمجرة.

بدا على آدم الإسترخاء التام، وهو يستند بجسمه القوي إلى عمود هناك. وكانت يده التي تتخلل شعره الخمري تخفي وجهه عنها. وتقدمت هي منه عابسة، لتتردد إزاء عينيه المحتقنتين. وقالت تسأله:

www.lilas.com

«ما الذي حدث لك؟»

هز رأسه وهو يشيح بأنظاره، ثم أجاب: «لقد غصصت.» ضاقت عيناها بارتياب، وخرج السؤال من بين شفتيها دون إرادة منها: «هل أنت بخير؟»

أومأ برأسه بحماس. وأطلقت هي زفرة طويلة متألمة. إنها لن تستطيع أبداً فهم هذا الرجل ولو بعد مليون سنة، وما كان لها أن تحاول ذلك، لأن النتيجة معروفة. ولكنها، بدلاً من أن تهدأ، مستسلمة للقدر الذي لا مهرب منه، شعرت فجأة بالقنوط.

شفي آدم بسرعة، وأحست بالأسف إذ فقدت متعة ضرب على ظهره لإزالة الغصة. أحاط كتفيها النحيلتين بذراعه الطويلة القوية، ودفعها ناحية اليمين. وكانت عيناه لا تزالان تتألقان من ردة الفعل، ولكن ملامحه ما لبثت أن عادت إلى تماسكها وهدوئها.

لقد أعجبها أن يبدو عليه الضعف، وعبست وهي تقول: «أمتأكد أنك بخير؟»

قال بابتسامة شفافة: «إنني بخير تماماً.» ثم نظر إليها وقال بلهجة غير عادية: «إنك رقيقة الإحساس يا إيفون.»

فتحت عينيها بذعر، وأعادت وضع النظارة على عينيها تخفيهما وهي تتمتم مرتجفة: «أوه، من فضلك.»

تركها تتقدم لتفتح باب سيارته (البي. إم. دبليو) التي توقفا عندها. لقد كانت سيارته هو، ولا بد أنه قادها في طريق صحراوية.

تصورته يسرع بسيارته في طريق صحراوية أثناء الليل، وحيداً منطوياً على نفسه.

استقرت في مقعدها بينما كان هو ممسكاً الباب. بدت ضعيفة هشة العضلات بجانب يديه الطويلتين اللتين كانتا تحركان عجلة القيادة. كان جسمه مسترخياً، ووجهه ساكناً، وقد بدا التفكير العميق في خطوط فمه.

وضع حول وسطه حزام الأمان، ثم انطلق بسيارته. عند ذلك فقط، ألقى على وجهها المضطرب نظرة سريعة غامضة.

عاد يقول ببطء وبرود كان لهما معان شتى: «إنك رقيقة الإحساس، حتى أثناء تفجرك غضباً وسخطاً، يبقى هنالك في نفسك مكان للرقة والإحساس، تستطيع تغطية المشاعر العنيفة التي تفترسك وتستطيعين أن تحمي الآخرين من طباعك السيئة.»

www.liilas.com

غطت وجهها بيدها واستدارت مبتعدة عنه، وهي تهمس برعشة: «ليس عندي أية فكرة عما تتحدث عنه.»

قال بصراحة جارحة: «إنك كاذبة. إنك تكذبين عليّ ولكنك تكذبين على نفسك قبل كل شيء. إنني أفضل ان تكوني نزيهة أثناء غضبك.»

قالت ويداها تضطربان في حضنها: «عليك اللعنة. لماذا تقول مثل هذه الأشياء؟»

سكت برهة، ثم قال: «لقد أخبرت ريتشارد انني سآتي لآخذك من المطار بنفسي، فأنا أريد أن أجد فرصة نتحدث فيها معاً في عزلة عن الآخرين.» كان يتكلم باختصار وقد ركز اهتمامه على حركة السير.

قالت بحدة: «وماذا هناك لنتحدث بشأنه؟»

قال ببرود: «لو طلبت منك ذلك لرفضت، فأنا اعلم انك لن تمنحيني أية فرصة. والطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها

أن انفرد بك هي أن آخذك أسيرة بالقوة مغتنماً الفرص لذلك ولكن اللعنة على هذا، فإنه نادراً ما يحدث. إنك الحلقة الضعيفة عندي، ولذلك يهمني أمرك.»

هتفت بذعر وقد تبدلت اساريرها، وهي تشعر بجرح في مشاعرها وكبريائها معاً: «كيف تقول لي كلاماً كهذا؟ إن عملي متقن تماماً.»

تمتم قائلاً بلهجة هادئة يشوبها الغضب: «متقن. لا بد أن هذا مهم بالنسبة إليك. حسناً، إن أساليبك لا عيب فيها، إن لنيك ويتشارد، وسالي وراشيل حتى أبوك... والجميع يهابونك. إنك لا تتأخرين أبداً، لا تنسين كلمة واحدة من دورك، لا تتوترين أبداً، بينما تنفجرين غضباً لدى أقل هفوة خارج العمل، فإنك لا تفقدين أعصابك أبداً معهم مهما بدا منهم. إنك صبورة سريعة في ارتجال ما يغطي أخطاءهم وعدم كفاءتهم. إنك ممثلة رائعة تماماً حتى عندما تكونين مرهقة.»

صرخت ثائرة وهي ترفع يديها إلى رأسها الذي يدق بعنف: «لماذا إذن تصرخ بي بهذا الشكل؟» لقد كان يهاجمها دون رحمة، دون انذار، وكانت عيناها تتوهجان حنقاً.

أجاب وقد التوت ملامحه: «لأنني أكره ذلك. لأنك لا تبذلين أي جهد لأدائك في التمثيل، وتتصرفين بشكل خاطىء تجاه الجميع. إنك تفعلين كل ما أطلبه منك، وتتقبلين كل الإرشادات دون تذمر. إنك أشبه بدمية بشرية، مجرد لحم ودم دون روح. إنك زائفة.»

زمجرت وقد امتلأت عيناها بدموع الغضب: «لم يتحدث إلي أحد قط في حياتي بهذا الشكل.» كانت دموع غضب

خالية من أي مناورات أو تحايل. إنها لم تبك بدموع حقيقية امام اي إنسان منذ أعوام طويلة نسيت عددها. واسترخت قبضتاها ورفعت يديها إلى وجنتيها تمسح دموعها. ونظرت إلى أطراف أصابعها المبللة بدهشة. لقد فعل هو هذا بها. وقالت: «كيف تجرؤ على أن تدعوني بالزائفة؟ إن هذا معيب. إنك ترشقني بالحجارة، بينما أنت الذي سعى إليّ. حسناً، يا صديقي، أظنني تعلمت درساً جيداً في الأسابيع الأخيرة. كل شيء له ثمن، ولكن، فليتنبه الشاري، لأنه يحصل فقط على الشيء الذي يدفع ثمنه.»

قال بازدراء يشوبه شيء من الألم: «إنني لم أدفع ثمناً أبداً. ما الذي حدث لك؟ عندما كنت تحاربينني، كان بيننا دوماً عمل يجمعنا، ولكنك تبدلت في مكان ما. أين ذهبت في الأسبوعين الماضيين؟»

أجابت بصوت ضعيف وقد أرهقها الكفاح ضد استفزازاته وضد مشاعرها المذعورة: «لم أذهب إلى مكان قط. كل هذا من تصوراتك يا آدم.»

رمقها بنظرة مشتعلة وهو يقول بارتياب: «إن أسوأ ما في الأمر أنه لم يرك أحد كما يظهر. لقد اختبأت في مكان ما وأضعت المفتاح. إن في إمكانك الفوز بأية جائزة لمجرد مظهرك الذي تبدين عليه الآن، ولكننا، أيتها الحبيبة، نحن الإثنين نعلم أن هذا تشويه للحقائق. يا الهي، ولكن كلا، إن فوزك بالجائزة ليس شيئاً غير عادل تلك أنك، دون أن تبذلي أي جهد، أمهر ممثلة رأيتها في حياتي.»

قالت والحقد يغلف كلماتها بالرغم منها مما طعنهما، هما الإثنين، بالصميم: «هذا مديح من الملك.» أمسكت

www.liilas.com

أنفاسها، وأفلت منها زمام طبعها، ليتصاعد بذلك خفقان قلبها.

أجابها بصوت هامس مخيف: «إنني لا أمدحك.»

اجفلت إذ لم تدرك انه انتبه إلى ذلك الحقد الذي بدر منها، وأضاف بنظرة صارمة متوعدة: «ذلك لأنني من الأشياء بحيث لا أفكر في ذلك.»

تمتمت مزمجرة بالمثل: «انك متحامل عليّ لدرجة انك لا تمدحني حتى ولو لم تكن مستاء مني.» وتمسكت بمقعدها خوفاً من أن تدفعها مشاعرها إلى الإندفاع من فوقه. وقال بهمس كفحيح الأفعى: «إنك تقلب الأشياء في رؤوسنا. جرب هذا الشعور بنفسك. حاول ذلك، إذ قد يدفعك هذا إلى التأمل والتفكير. إلى التأمل في كيف تربط الأمور ببعضها لتكميل الصورة المطلوبة. كيف تأمرنا أثناء العمل في الفيلم، بكلماتك (أمسك) (تقدم) (خذ)... حسناً، إن ذلك لا يؤثر عليّ.»

قال وهو شاحب الوجه: «إذاً، فما زلت غاضبة مني حقاً، كما أنك لم تهربي لكي تتقوقعي حول نفسك وتموتي كما فعلت من قبل.»

قالت بحدة: «ذلك لأنني من سوء حظي، تحت المراقبة على الدوام.»

أجابها: «لا بد أنك كذلك، إذ أنني أقسم أن غضبك مني بدأ منذ سنوات في شخص مخرجي أفلامك ومضى متدرجاً إلى أن اكتمل الآن.»

لأول وهلة، لم تصدق ما سمعت، وشهقت قائلة: «ماذا تقول؟»

زمجر قائلاً: «لقد سمعت ما قلته.» وسقط شعره القاتم الخمري على جبهته القوية الذهبية اللون ممثلة الحمم الذائبة التي يقذفها البركان، وقد سالت منه الآن جسدياً ونفسانياً. كيف أمكنها أن تشبهه بالثلوج المتساقطة في الشتاء، بينما هو هنا تشع منه حرارة البراكين.

قال: «وهكذا، عقدتُ العزم على ألا تفقدي نفسك مرة أخرى كما فقدتها من قبل. إلى أي مدى سيكون شعورك بعدم الأمان؟ وأنا... أنا الوغد في هذه المسرحية، المدمّر الذي يسلب ما يستطيع سلبه، والذي كان سبب كل الأضرار التي حدثت لك من قبل.»

صرخت ثائرة: «لقد سبق واقسمت لي أنك لن تثير هذا الموضوع مرة أخرى. تباً لك، لقد وعدتني بذلك.»

رفع حاجبيه مستنكراً وهو يقول ثائراً: «إن ما يزيد في سعادتي أن أدع الماضي حيث هو. ولكنه لا يمكن أن يبقى هناك، أليس كذلك؟ فهو دوماً سيبرز برأسه البشع في ذهنك، وفجأة، ترين أن وجهي أنا قد أصبح يمثل وجه الماضي. حسناً، إنني لن أقوم بتمثيل الدور الذي فرضته عليّ. إنني سأتحدى، وأستفز وأقول أي شيء حين يخطر لي أن أقوله لك. ولكنني لن استنزف قواك لا في هذا الفيلم ولا في أي مكان آخر، وعليك أن تصلي إلى الوفاق معي.»

تملكتها صدمة اخترقت أعماق روحها الثائرة المضطربة. وسكتتْ مصعوقة. هل هي حقاً قد اعطت لآدم، في مخيلتها، مثل هذا الدور المهيمن الكابح؟ هل كانت، دون وعي منها، تخاف أن يجردها من كل نواحي ذاتها؟ هل خوفها من تغيير نفسها قد استحال إلى مثل هذه الهواجس؟

www.liilas.com

استدارت بجسمها القلق تحدق فيه، وفي تقطيب حاجبيه الشرس، وتوتر ملامحه، والتواء شفتيه وتوترهما، ويديه الرائعتي الجمال فوق عجلة القيادة... وصدرت عنها آهة خيبة وإحباط. لقد كان رجل الثلج، ممثلاً بكل معنى الكلمة. وما زال آدم ممثلاً يقوم بدور هادئ صافٍ في إرشاد من هم بحاجة إلى من يرشدهم. قد كسا نفسه بالصفاء بنفس السهولة التي يكسو بها جسده بالملابس. وبالنسبة إليها، مهما يكن من أمر تحديه لها، فقد منحها كل ما عنده من ذلك الكرم، عنف شخصيته المسيطرة بما يتدفق منها من تألق وبهجة، وكأنها لم تتبادل معه الإستفزاز أو قوارص الكلام قط أو تدأب على أن تلفحه بطبعها الناري دون تحفظ... إن معرفتها، التي كانت تظنها في جنس الرجال، هي التي جعلتها تصمم على أن تصفع آدم، بكل دم بارد، وذلك في أول لقاء بينهما، أن تفكيرها الخاطئ جعلها تعتقد أنها بذلك، ستجرح كبرياءه وتدمر سمعته وتقتل فيه زهو الرجولة. ولكنه، بدلاً من ذلك، وقف ثابتاً لا يهزه شيء ليربح بعد ذلك، المعركة بعد قتال نظيف.

نظرت عبر النافذة إلى المناظر الصحراوية التي يمران بها وهي تشعر بالتقدير الذي يكنه لها.

لقد قدرها آدم إذ رآها شخصاً يستحق أن يخاصمه ويصرخ فيه ويكشف أمامه القناع البارد الذي يكسو وجهه، ليريه حقيقته عارية.

قال وهو يتنهد: «والآن، ما الذي تفكرين به؟» وأشعرتها أحاسيسها المرهفة أنه يحاول استجماع أشتات نفسه.

أجابته ببطء: «إنني أفكر في أنني مدينة لك بالإعتذار.»

قال بشيء من السأم: «لأجل ماذا؟»

لم تصدق ما سمعت. ذلك أنه لا يمكن أن يشعر بالسأم وما زالت الحرارة تشع منه بشكل لا يصدق. كما أنه كان بالغ التوتر.

أجابت وهي تسند رأسها إلى مسند المقعد خلفها وقد بدا في صوتها الخيبة: «لأنني كنت كاذبة. لأنني كذبت عليك ولكنني، قبل كل شيء، كذبت على نفسي.»

ساد الصمت لحظة، ليقول آدم بعدها في صوت شديد الهدوء: «شكراً.»

أدارت إليه رأسها، ونظرت إليه، وهمست: «إنني شديدة الخوف من أن أفقد ذاتي. إنني شديدة الخوف من أنه، إذا عاد فحدث لي ذلك هذه المرة، فربما لا أجد ذاتي مرة أخرى.»

رأت عضلات فكه تتوتر، ومد يده يمسك بيدها يشد عليها وهو يقول: «أتعرفين بم أفكر؟ لقد كان من سوء حظك أنك كنت محاطة بأناس نهمين أنانيين وذلك في السنة الأخيرة التي عملت فيها، فهم لم يهتموا بالناحية الإنسانية طالما يحصلون على النتيجة التي أرادوها. إن أي شخص على شيء من الحساسية، يمكنه أن يميز الشخص الذي يكون على شفا الدمار. كان كل ما عليهم عمله، هو أن يمدوا أيديهم إليك ليجذبوك مما أنت مقبلة عليه.»

هزت كتفيها وهي تقول: «ربما كنت على حق. من يعلم؟» فجأة قالت بألم: «إنني آسفة لكوني لست في المستوى الذي تريده كممثلة.»

تنفس بحدة مفاجئة وهو يقول: «لا بأس. لم يعد هذا مهماً الآن.»

نظرت إليه ذاهلة. لقد كان هذا الأمر من الأهمية عنده بحيث عنفها لأجله. وقالت: «ولكنه مهم عندي.»

قال في محاولة لتلطيف موقفه بعد أن استشعر فيها الإضطراب: «إذن فلا تتخلي عنه، واسمعيني وأنا أتحدث عن الأشخاص الأجلاف عديمي الإحساس في حين أنني أفوقهم جميعاً في هذه الصفات.» ورمقها بنظرة عابسة وتابع: «إيفون، إنك أنت التي تصممين على العودة إلى التمثيل. فإن اخترت العودة، فإن براعتك كافية تماماً. فإذا حاولت أن تتقدمي في فنك، فإن عليك أن تفقدي ذلك. إن الممثل الحقيقي هو الذي يجيد دوره لكي يصبح جزءاً منه فلا يكون الأمر مجرد تمثيل. إنها قفزة والثقة تقومين بها بنفسك وليس لي الحق في أن أطلبها منك.»

أغمضت عينيها وجسدها يهتز تحت تأثير يده القوية الدافئة التي كانت تضغط يدها بصمت.

لقد كان رجلاً يعيش تبعاً لما تمليه عليه نفسه ما دام الآخرون يوافقونه على ذلك. كما كان في حكمه على الأمور بالغ الحزم والتجرد.

لقد سبق ووعدها بأنه لن يحملها فوق طاقتها. ولقد أخبرته بالحق ذلك الوقت، وبخشونة لا تغتفر، أن ليس عليه تكبد ذلك العناء لأنها تحسن تدبير أمورها بنفسها.

ذلك لأنها قامت بهذا من قبل، فقد كانت سيليستا، وماري، واليزابيت...

همست: «وماذا لو حاولت ذلك؟»

تنفس بشدة دون أن تلحظ هي ذلك، وقال وقد

تصلب جسده: «إذا أحببت أن تحاولي، وإذا وضعت ثقتك بي، فإنني سأساعدك على استجماع ذاتك المشتتة.»

فاتسعت عيناها دهشة وهي تسأله: «هل ستفعل ذلك حقاً؟»

أجاب يطمئنها بثقة تامة: «في كل وقت، يا إيفون.» وبدا عليها العجب. فليساعدها الحظ، فقد صدقته.

استدار بالسيارة في طريق ترابي سارا فيه عدة أميال قبل أن يصلا إلى الضاحية حيث مساكن الفرقة. واستطاعت تمييز المجموعة الهائلة من سيارات الشحن التي تحمل آلات الاستديو، والعربات المقطورة بها والتي يسكنها طاقم الممثلين أثناء اخراج الفيلم، ثم المساحة الخضراء وبجانبها النهر الضيق الذي ينساب ببطء والذي يقوم إلى جانبهما الاستديو. نظرت إلى ذلك وقد تنازعها عاملا الإثارة والخوف. أوقف آدم سيارته (البي. إم. دبليو) ثم نظر إليها. وقال بشكل مفاجىء جعلها تهتز: «لا تمنحيني ثقة عمياء.» وبينما أخذت عيناه الرماديتان تلتهمان أدق تفاصيل وجهها المعبر، عاد ليقول «إختبريني أولاً إنما بأمر بسيط جداً.»

ازدردت ريقها وهي تنظر إليه، ثم ترددت. كان يقف منتظراً ردها، وقد ملأه العزم والنشاط، فتمثل لها وكأنه الشيء الحقيقي الوحيد في تلك الأمسية الحارة الناعسة في ولاية أريزونا. وقالت فجأة: «لا بأس.»

عاد يسير بالسيارة نحو الاستديو. وأمسكت إيفون أنفاسها وهما يتوقفان قرب المنزل الهادىء. ولم يسمح

www.lilas.com

لها الخوف والشوق بأن تنتظر حتى يترجل ثم يستدير حول السيارة ليفتح لها بابها. فترجلت بنفسها في الوقت الذي ترجل هو فيه. مشى نحوها ثم وقف بجانبها منتظراً كلمة لها.

باندفاع وطيش نموذجيان، استدارت ثم ركضت نحو المنزل، لتصعد الدرجات الخشبية، ثم تدخل من خلال الباب المفتوح إلى الغرفة الأمامية.

جالت حول الغرف ترفع هذا الشيء وتضع ذاك. إنها أشياؤها هي، فرشاة شعرها والمرآة، وبعض أشرطة الشعر. وفتحت خزانة الثياب تنظر إلى ثيابها.

جلست «حنة» على فراشها تتنفس بعمق وقد تسلل هدوء النهار إلى أعضائها. وطرق مسامعها صوت هادئ يسألها من خلال الباب: «ماذا تفعلين؟»

أدارت «حنة» رأسها الكستنائي الشعر وهي تقول وقد افترت شفتاها عن شبه ابتسامة: «إنني أحلم. دوماً تراودني الأحلام بعد الظهر. إنني لا أستطيع القيام بأي شيء آخر في هذا الجو الحار.»

عاد الصوت الهادئ يسألها: «وبم تحلمين؟»

أجابت وهي تهز رأسها لهذه التصورات: «بأشياء وأشياء. بالخدم... وبثوب رقص جميل... وبرجل أرقص معه...»

«أتعنين زوجك؟»

أطلقت حنة ضحكة قصيرة متعبة ولم تجب. وفجأة فتحت عينيها، وعبست بحيرة حين استيقظت من سهوتها واتضحت الأشياء حولها. وقفزت منتصبة على

قدميها بنشاط وأسرعت تعيد نظام الغرفة وقد استحال الصفاء الذي اكتسبته ملامحها في أثناء أحلام اليقظة تلك، إلى عبوس وهي تردد: «هذا لا يجوز... هذا لا يجوز...»

سألها الصوت مرة أخرى: «ما الذي تفعلينه الآن؟»

فأجابت حنة مستاءة للفوضى البادية عليها الغرفة: «كلا... لا ينبغي لهذا أن يكون... إنني لا أسمح بأن تبدو غرفتي بهذا المنظر. كل شيء يجب أن يعود إلى مكانه... كل شيء يجب أن يكون منظماً. لا مجال للأحلام هنا. إن هذا يجعل الحياة فوضى، ويحمل المرء على ان يتمنى أشياء ليس في إمكانه الحصول عليها.»

سألها الصوت: «وماذا غير ذلك مما لا ينبغي أن يكون، يا «حنة»؟»

لقد بدا كل شيء الآن، بصورة أفضل. واستدارت لتخرج من غرفة النوم وتلقي نظرة، ثم أسرعت تنظم الأشياء وتتكلم طوال الوقت.

كان المطبخ بادي البساطة كبقية الغرف، وما لبثت أن تحولت نحو اشعة الشمس التي تنساب منحدرة من النافذة لتقف في وسطها بقوامها النحيل منتصبة كالسهم، بينما دقائق الغبار تدور حول جسدها في رقصة خيالية.

وقف الرجل الذي كان قد لحق بها كخيال من نار، وقف محملقاً وقد سمّره هذا المشهد.

لم تكن واعية إلى وجوده، وهمست: «إنني بسبيل أن أفقد كل ذلك... كل شيء أحببته. كل ما رجوته وحلمت به...

www.lilas.com

أبي... عدم حصولي على أولاد، زوجي الذي لا أستطيع أن أحبه مهما حاولت، مظهري... وجهي... إن هذا المكان البغيض سيسلبني صباي.» وتداعت مرهقة، وقد تدلى رأسها فوق صدرها ببطء، وأغمضت عينيها الكبيرتين في يأس بالغ.

تحرك الرجل الذي كان يراقبها دون أن تلحظه، ذلك الرجل ذو المقدرة غير العادية في التحكم بانفعالاته، وقد بدا انفعاله واضحاً.

في الحال، انتصبت «حنة» بألم وكبرياء، وهي تهمس «إن هذا غير مهم. ليس عندي وقت كافٍ للإهتمام بكل ذلك. كل شيء لا بد أن يعود إلى مكانه.»

أحاطت بها الذرعان بلطف، لتنتفض بعنف لهذا التطفل. جذبها آدم إليه، وأمسك بها بشدة وهو يحني رأسه على رأسها المتدلي على صدرها بأسى، فتغمرها مشاعر سرت في انحاء جسدها، وكانت من القوة بحيث نبهتها. وتأوهت. لقد تبددت في نفسها شخصية «حنة»، شخصيتها في الفيلم، التي سيطرت عليها.

همس: «إيفون، إيفون، هذا يكفي.»

رفعت إيفون رأسها ونظرت إليه. كانت عيناه الرماديتان متسعتين. وبدا لها رائع الجمال، قوياً بحيث لا يمكنها إنكار ذلك. هذا الرجل الذي أخذت «حنة» تحلم به والذي رقص معها تحت ضوء القمر. هذا الرجل يبدو وكأنه يعاني من مشاعر متدفقة تسيطر عليه.

قالت ببساطة وقد ابتهجت ملامحها لهذا الإكتشاف: «ها أنني قد عدت إلى ذاتي.»

قال بصوت عميق وهو يحتضنها بشدة: «أوه يا عزيزتي، لقد أحسنت عملاً.»

لقد كان هذا أول ثناء يقدمه إليها منذ أن بدأا يعملان معاً. وكانت رنة الصدق في لهجته واضحة. فألقت إيفون برأسها على كتفه راضية.

www.liilas.com

الفصل الخامس

بدأ الشهر الثاني وقد تجمعت الأمور في يد رجل بالغ العناد والصلابة.

لم يكن يرضى عن شيء قط. لم يصرخ ولم ينفجر صبره، كما يتصرف، عادة، بقية المخرجين. بل كان يلقنهم الأمر بهدوء مخيف مرة بعد مرة. ويكافح الممثلون، إزاء متطلباته التي لا تلين، في سبيل اداء عالي المستوى، ليعطوه ما يريد. إن كلمة واحدة ناعمة تصدر عنه، تجعل الممثلين يهبون إلى العمل طوعاً.

لقد كانت الأسابيع القليلة الأولى، شديدة الإرهاق لإيفون التي كانت قد نسيت ما يستلزمه يوم طويل من التمثيل، من عناء. وكانت عربتها الخاصة هي ملجؤها وملاذها الذي تلجأ إليه، آخر النهار، لتتهالك في فراشها ومن ثم تستغرق في نوم عميق خالٍ من الأحلام. وفي الأيام التي يكون عليها أن تمثل فيها، كانت تبدأ قبيل الفجر.

لقد غسل شعرها وصفف، وسببت لها التفاصيل الدقيقة بالنسبة لملابسها، عناء كبيراً. كل جزء منها يجب أن يكون متقناً، توخيا للدقة، من مشهد لآخر. وحيث أن التصوير لا يخضع لتسلسل أحداث القصة بانتظام، بل أن كل مشهد يتبع تصويره عامل الوقت وأفضل الفرص المناسبة للإستفادة من العاملين في الفيلم، مما يستدعي دراسة طويلة مرهقة للمشهد ذاك.

أول عملية تجميل وجه جريت عليها سجلت فشلاً ذريعاً.

ألقى آدم نظرة سريعة على وجهها... على الدقة والبراعة التي اكدت معالم وجهها غير العادية، والعنيدة، بشكل منفر. واقتم وجهه، وزمجر وقد تملكته عاصفة من الغضب كانت أكثر هولاً من صمته المخيف: «تباً لهم، ما الذي فعلوه بوجهك؟»

كانت تقفز من مكانها وهي تصرخ: «ليس لديّ أي فكرة.»

عاد يزمجر ببطء. وكان بعض العاملين، مجهولين بالنسبة لهما، يروحون ويجيئون استعداداً للعمل، قد توقفوا وأخذوا يراقبون ما يحدث، بفضول.

قال لها بحدة وهو يضع قبضتيه على خاصرتيه ويحدق فيها: «حسناً، لماذا لم تنتبهي إلى ما كانوا يفعلونه بك؟ إن مظهرك خطأ. كله خطأ.»

وبدون وعي، قلدته في وقفته، مقربة وجهها من وجهه وهي تقول بحدة: «إن مراقبة عملية تجميل الوجه ليست مسؤوليتي.»

قال عابساً وقد لمعت عيناه الرماديتان كالفضة: «إن مسؤوليتك هي أن تظهري صفات «حنة». هل يمكنك أن تخبريني، بصدق، أنك، عندما نظرت في المرآة، رأيت وجه «حنة» يبادلك النظر؟»

قالت ثائرة: «إنني لم أنظر إلى المرآة.» ونظرت إليه مفكرة، أين أصبح رجل الثلج الآن، يا إيفون؟ أين هو كلامه الهادىء الصبور؟

ارتفع حاجبا آدم، لدى سماعه كلماتها هذه، بارتياب، وحدق

www.liilas.com

فيها غير مصدق أذنيه، ثم انفجر ضاحكاً بصوت عال وهو يقول: «أتريدين أن تخبريني أنك لم تنظري إلى المرآة مرة واحدة هذا الصباح؟ يا إلهي، أي نوع من النساء أنت؟»

فغرت فاها وهي تشهق بصوت مسموع قائلة: «إنني امرأة أكثر من أية امرأة قد يسمح لك الزمن بمعرفتها. أيها الرجل الذي لا يطاق.» وزادت ثورتها بعد إذ شعرت بغلظتها لهذه الإهانة التي وجهتها إليه.

ولدهشتها الشديدة، ضحك آدم متهكماً. ونظرت وهي تصر بأسنانها متسائلة عن الطريقة التي يمكنها بها أن تهشم بقبضتها ابتسامة التهكم تلك التي تكسو وجهه الوسيم الذي يثير غيظها.

عاد يقول: «وماذا كنت تفعلين أثناء تجميل وجهك؟»

كوّرت يديها تهم بضربه. ولكن نظرة منها إلى ملامحه المتوترة والخطوط حول فكه وعينيه الضيقتين، جعلتها تلزم حدها.

قالت بصوت لا أثر للحياة فيه: «إنني أسوأ ما أكون عند الصباح.»

قال هازئاً: «هذا واضح.»

كادت تهجم عليه، ولكن أنظاره وقعت على قبضتها المتوترة فأردف يقول: «هل هي ثورة، يا عزيزتي؟»

قالت من بين أسنانها: «يبدو أنك ستسبب ذلك لنفسك. لماذا تصيح بي دوماً؟ إنك لا تصيح بأي شخص آخر حتى في الوقت الذي يتوقعون فيه منك ذلك. ولكنك تصيح بي أنا فقط. لماذا يا آدم؟ لماذا؟»

هدر قائلاً بابتسامة متوترة: «ليس لدي أي ميل لأن

أصيح بأي شخص غيرك، ذلك لأنه يسرك تماماً أن تشعلي غيظي.»

بدا عليه أنه يريدها أن تقوم بذلك، ولكنها لم تستسلم لهذا الإغراء، وأرغمت نفسها على فتح قبضتها وعرضت عليه راحتها المفتوحة وهي تقول ساخرة: «إن سالي تخاف منك جداً.»

نظر إليها بعينين مضطرمتين وهو يتمتم برقة بالغة: «ليس لسالي صفات المرأة التي تقف في وجهي، ولكنك لم تخبريني.»

حدقت إليه بنظرة جوفاء دون أن تفهم سبب شعورها بانقباض مفاجئ في صدرها جعلها لا تكاد تستطيع التنفس. وسألته: «أخبرك بماذا؟»

فأجاب: «بالذي كنت تفكرين فيه أثناء تزيين وجهك.»

ما الذي كان يفعله الآن؟ لقد كان إصراره في منتهى العناد والغموض مما لم تر له مثيلاً من قبل. وأخيراً، تنفست بعمق وهي تقول متذمرة وشبه محرجة لهذا الإعتراف: «لم أكن أفكر في شيء. لقد كنت نائمة.»

عاد يهدر مرة أخرى إنما بالضحك هذه المرة.

هنا فقدت السيطرة على نفسها، وقفزت نحوه مصوبة قبضتها إليه، وبحركة خفيفة منه لم تلحظها، كان قد قبض عليها. أمسك بها دون جهد، بدا وكأنه تذكر أين هما، فنظر حوله ليرى أولئك الذين كانوا يتفرجون عليهما بصمت، والذين لم يسمعوا شيئاً عدا الصراخ المتبادل، ولكنهم، مع ذلك، كانوا يتفرجون على تلك التمثيلية التي تعرض أمامهم، باهتمام.

www.liilas.com

قال لأولئك المجتمعين بكل لطف: «أليس لديكم جميعاً ما تقومون به؟»

طبعاً، تذكروا جميعاً أن لديهم، فعلاً، ما يقومون به. وسرعان ما خلا المكان منهم، وشعرت إيفون بالتحرر من بعض سحره ذاك، وعاد إليها بسرعة، قدرتها على التفكير، فحاولت ان تتخلص من قبضة آدم، ولكن حركتها هذه لم تفلح سوى في إعادة لفت انتباهه إليها.

عبس في وجهها، ثم مشى بخطوات واسعة نحو عربة الزينة، جاراً إياها خلفه. وأخذت هي تسير وراءه بسرعة لا تكاد أقدامها تمس الأرض وهي تحاول مجاراة خطواته الواسعة، وقد تمنت لو كان قد دعاها إلى السير معه بدلاً من أن يسحبها بهذا الشكل وكأنها كيس بطاطا أو لعبة محشوة يجرها طفل خلفه.

لكنها عبست لهذه الفكرة وقد بدت على وجهها الكآبة لهذه التصورات. ولكن آدم كان من البعد عن تصور نفسه يجر دمية محشوة، بقدر بعد الطبشورة عن قطعة الجبنة. ذلك أنه كان رجلاً بكل معنى الكلمة. فلو كان دعاها إلى السير بكل أدب، ما الذي كانت ستفعله؟ هل كانت سترفض، من باب المعاكسة له، أم كانت ستقبل؟

صعد الدرجات المعدنية، داخلاً العربة، دون استئذان، بينما كانت هي تركض خلفه. واستدارت عاملة التجميل تنظر بدهشة. وتجاهل آدم النساء الأخريات وهو يدفع إيفون نحو مرآة كبيرة وهو يقول لها: «أنظري إلى نفسك.»

عبست في وجهه، ثم استدارت تنظر إلى صورتها في المرآة. ويبدو أنها لم تستطع التركيز على صورتها، فقد

تحولت أنظارها إلى ذلك الرجل الفارع القامة المحمر الشعر الخمري اللون الذي كان واقفاً قرب كتفها. هل كان أولئك الذين يتفرجون عليهما، يرونها بهذا المظهر... رقيقة الجسم شديدة الأنوثة بجانب رجولته البالغة القوة والسيطرة؟

سألها بعد لحظة: «هل ترين ما أراه أنا؟» هزت رأسها عاجزة عن الجواب. لم تجرؤ على أن تخبره بما رأت. لم تجرؤ على الإعتراف بذلك حتى لنفسها.

همست من بين شفتين جافتين: «ماذا ترى أنت؟»

انعكست في المرآة ابتسامة لها ثم قال بهدوء: «إنني أرى أشياء رائعة... أرى خدماً، ثوب رقص، رجلاً ترقصين معه. إنك هكذا رائعة الجمال بشكل مدهش... ارستقراطية مزهوة بنفسها. إنك إيفون التي لا يمكن تجاهلها... ولكن، ليس بحنة..»

لأول مرة، ركزت أنظارها على نفسها، ثم أومأت برأسها متفهمة.

قال آدم لعاملة التجميل: «أريدها عارية من كل شيء.»

عصفت هذه الكلمات التي لم تكن تتوقعها، في داخلها. ارتجفت ملامحها، ووقفت أمامه، وأمام نفسها، بغير قناع، ولكن انتباهه كان، لحسن الحظ موجهاً نحو المرأة الأخرى. ما معنى هذا؟

كان التأزم في داخلها فائق الحد. لقد تجمعت أحاسيسها بأجمعها، وأغمضت عينيها، ثم وقفت كالتمثال لا تريد أن تعرف.

استمر الحديث بين آدم والمرأة الأخرى دون أن ينتبها

إلى ذلك الصمت. وتابع قائلاً: «كلا، حتى ولا رشة مسحوق، قلت لك لا شيء. إن الكاميرا تكشف كل شيء. إن بشرتها ممتازة نقية بما فيه الكفاية. ولا يتيسر لنا دائماً جمال طبيعي إلى هذا الحد لكي نستفيد منه. وأنا مصمم على استغلاله إلى أقصى حد. إغسليه كله وأسرعي في ذلك لأن التصوير سيبدأ بعد ربع ساعة.»

قالت المرأة: «نعم يا سيدي.»

تحرك آدم يبغي الخروج عندما وقعت أنظاره على جسدها المتجمد، فتردد وهو يسألها: «إيفون، ماذا جرى؟» بدت في لهجته العجلة ونفاد الصبر فقد كان أمامه برنامج حافل لعمل اليوم.

همست من بين شفتين شاحبتين: «لا شيء. فقط، سر في طريقك.»

لقد أقفلت على نفسها سجنها الباطني دون سبب.

لم تر التعبير الذي بدا في ملامحه وهو يقف خلف كتفها محدقاً فيها دون أن يلمسها... لقد كاد أن يفعل ذلك إذ رفع يده لتتوقف في الهواء فوق شعرها الكستنائي. وجمع يده في قبضة قوية وقد بدا على وجهه تصميم مخيف، بينما شعره قد تدلى فوق جبينه كنار مشتعلة.

لقد بدا على وجهه الذي كان الآن أشبه بوجه الصقر، تعبير وحشي نهم وكأنه على وشك أن ينقض عليها مفترساً.

كانت عاملة التجميل واقفة تراقب هذا المنظر وقد فتحت فمها بشهقة صامتة. وتحولت أنظار آدم العنيفة إليها، ثم رفع إصبعه وهز رأسه يحذرها، فأومأت برأسها مستجيبة، ومن ثم، استدار خارجاً من المكان.

استرخت إيفون في مقعدها بعد ما سمعت صوت باب العربة يغلق. وكان من الممكن أن تستغرق في التفكير في متاعبها لولا أن لفت انتباهها شيء غريب جداً.

كانت عاملة التجميل امرأة معروفة بحبها للثرثرة والإغتياب، ولكنها الآن بدت متحفظة بالغة التكتم. لقد غطت وجه إيفون بمسحوق منظف لإزالة كل أثر للزينة على وجهها. لقد قامت بكل هذا العمل دون أن تتلفظ بكلمة.

أخذت إيفون تراقبها بحيرة، حتى كادت تظنها امرأة أخرى لولا أنها لم تستطع تكذيب عينيها.

هل من الممكن أن تسير الأمور من سيىء إلى أسوأ، إذا كانت البداية نفسها سيئة؟

كان قد حدث نزاع منذ اسبوعين في أول يوم من تصوير الفيلم، حول زينة وجهها. ومنذ ذلك الحين والجو بينها وبين ملك الشتاء مشحون بالأزمات.

إنها لم تفهم سبب ذلك كما أنها رفضت التفكير فيه، وتباً لأي شيء يجعل الهواجس التي يتعذر عليها تفسيرها، تسيطر عليها. إنها لم تعد الآن في واقعها الحاضر لقد أصبحت في واقع رفض تام. فكانت، ما أن تتفهم المطلوب منها تماماً، حتى تلقي بنفسها في أتون العمل لا تلوي على شيء، وقد تملكتها رغبة محمومة. وعندما تكون خالية من العمل، كان الضجر يتملكها إلى درجة خطرة.

لقد كانت أسوأ عدو لنفسها، عندما اتبعت هذا السلوك العصيب.

لا بد أن الجحيم هو مكان ليس فيه ما يعمله المرء على الإطلاق وبهذا، يكون العذاب على اشده. لقد كان أقرب مكان

www.lilas.com

متحضر منهم، هو بلدة صغيرة نائمة قد هزها وصول العاملين في الفيلم الذين كانوا تحت أوامر صارمة بالتمسك بأحسن سلوك بين الأهالي.

كان هنالك مكتب بريد صغير، ودكان بقالة يبيع كل شيء، من الأطعمة والدواء، إلى المجلات والصحف، وكان هنالك مكانان آخران يمكن للمرء أن يذهب إليهما، هما مقهيان متنافسان دوماً وقائمان في الطرفين المتقابلين من البلدة.

لقد طافت إيفون بكل تلك الأمكنة بما فيها المقهيان اشترت مجلات وصحفاً، وأسبرين، وأنشأت صداقات مع الأهالي، وحصلت على دعوات إلى بعض المنازل لدواع متنوعة بعضها شريف وبعضها غير ذلك. وقد ردت دعوات للغداء وأخرى، غير شريفة، بنفس الرقة وعدم إظهار الضيق.

ثم تعود إلى الإهتمام بزملائها والعاملين معها. كانت وسالي، شقيقتها في الفيلم، قد أصبحتا صديقتين حميمتين، وذلك نظراً إلى أنه لم يكن يجمع بينهما عامل مشترك. وكانت روتشيل (والدتها) إمرأة صلبة صعبة المراس. وقد تجنبت إيفون هذه المرأة. أما علاقتها بابيها كريستوفر، فكانت حب حياتها. وريتشارد كان هو ريتشارد الذي لم يكن يستحق أكثر من الفتات التي كانت تمنحها له نفسها القلقة الجائعة.

كان بين زملائها شاب يدعى جيري، كان له تأثير خاص بالنسبة إليها، إذ سبق وتعرفت إليه منذ سنوات. كان ممتازاً في عمله إنما مازال حالياً، في انتظار استدعائه للعمل.

وكان فتى عابثاً. ولما كان الضجر يتملكها كما كان يتملكه، فقد سرّت هي لتجديد معرفتها به.

في عصر ذات يوم، كان الحرّ خانقاً، ولما لم يكن ثمة ما يسلانه، عرض عليها جيري ان يخرجا معاً بسيارته المحطمة تقريباً.

استجابت بحماس، ولكنها أرادت أن تقود السيارة بنفسها. وكان ذلك سبباً لجدال جديد. وما لبثا أن استقلا السيارة، الشيفروليه، ومن ثم اتخذا الطريق الترابي. وعندما اعتقدا انهما ابتعدا عن موقع تصوير الفيلم بمسافة كافية لكي لا يتسببا في عرقلة التصوير، ضغط جيري الكابح بعنف مما أحدث صدمة قوية مصحوبة بقرقعة عالية.

شدّت إيفون حولها حزام الأمان وهي تهتف بابتهاج. كان جسم السيارة محطماً بشكل رهيب، ولكن جيري كان حريصاً على أن يكون المحرك في حالة رائعة. وهدرت السيارة فوق الأرض الوعرة، وما لبثت أن انحرفت، ثم أخذت ترفس بشدة. وأخيراً، نجحت في إقناعه بالسماح لها باستلام عجلة القيادة لتحاول الإستقامة بالسيارة بنفسها. وفي خلال دقائق، كانت تندفع بالسيارة في دوائر بخبرة مهنية كاملة.

هتف لها جيري باستحسان، وابتسمت له إيفون شاكرة.

فجاة، إنطلق حجر من بين العجلات ليحطم الواجهة الزجاجية التي سرعان ما اختفت شفافيتها لتستحيل إلى أشبه ما يكون ببيت عنكبوت أبيض. ضغطت إيفون على الفور بقدمها على الكابح وحلت جهاز التحكم لتوقف السيارة بشكل مفاجيء، هذا مع سابق علمها بأنهما في

www.lilas.com

أمان تام، إذ لم يكن أمامهما، في تلك الأرض الشبيهة بالصحراء، ما يمكن أن يصطدما به، ما عدا بعض الصخور والأقذار. ولكن، كان من نتيجة ذلك التوقف المفاجئ للسيارة أن تناثرت شظايا الواجهة الزجاجية المحطمة لتتساقط عليهما كشلال يتألق في أشعة الشمس.

اخترق جيري الصمت الذي تلا ذلك، بقوله: «يا له من انعكاس جميل لأشعة الشمس.»

رمقته بنظرة ندم وهي تقول: «إنني آسفة. سأشتري لك بديلاً عن ذلك.»

قال وعيناه تتراقصان في وجهه بسرور: «تقصدين أنك ستشتري لي سيارة أخرى؟»

انفجرت ضاحكة، وبقيت تضحك وهي تترجل من السيارة بحذر شديد وشظايا الزجاج العالقة بثيابها تتناثر منها مع كل حركة.

كان الإثنان يتفحصان مدى الضرر الذي أصاب السيارة، عندما انهمر الغضب فوق رأسيهما وتناهى إلى سمعهما صوت قاتل بهدوئه، يقول: «إنني لم أر في حياتي مثل هذا التصرف الخالي من المسؤولية.»

كان جيري منحنياً في الناحية المقابلة لها من السيارة، فرفع رأسه إلى أعلى، بينما قفزت هي في الهواء، ثم التفتت خلفها لتقع أنظارها على أكثر الرجال الذين شاهدتهم في حياتها ثورة وهيجاناً.

لقد سبق ورأت آدم غاضباً من قبل. ولكن هذا العنف الذي يبدو عليه الآن لم يكن يقارن بأية حال رأته عليها من قبل. كان متوتراً شاحب الوجه بشكل هائل، وقد لوى شفتيه

وبدت عيناه كتلتي لهب في وسط ذلك القناع الرهيب القاسي الذي يكسو ملامحه.

كان يتنفس بعنف. ولا بد أنه كان يركض، كحصان السباق، من حيث كان قد ترك سيارته في جانب من ذلك الطريق الترابي القذر.

تراجعت خطوة إلى الوراء وقد ظهر على وجهها خوف عفوي، بينما كان هو يتقدم نحوها، ثم يدير ذقنها إلى ناحيته بأصابع رقيقة مرتجفة.

أخذ يلتهم وجهها بعينيه مغمغماً: «هل أصابك ضرر؟»

هزت رأسها نفياً. وبدت، بشعرها الأشعث الذي كان يتألق بشظايا الزجاج، وقوامها النحيف الممشوق، كملكة السحرة.

استدار آدم مزمجراً نحو جيري الذي أجفل وكأنما أصابته رصاصة. لم يكن الأمر قد انتهى بعد. كان ثمة عقاب، ودعوى قضائية، واحتمال الموت... وبدا منتفخ الأوداج مطبق الفم.

حاولت، وهي ترتجف، أن تكبح هذا الفيضان، وتهدىء من روع الحيوان الهائج. وقالت: «آدم.» ويبدو أنه لم يسمعها في غمرة الصخب الذي كان يتدفق منه. فرفعت صوتها قائلة مرة أخرى: «آدم.»

فدار حول الشيفروليه ببطء وقد بدا عليه وكأنه سيخنق ذلك الرجل. عندها صرخت من أعماقها: «آدم!»

حسناً، لقد انتبه إليها الآن. وألقى عليها نظرة كالرصاص وهو يصرخ فيها: «تباً لك. ماذا تريدين؟»

هنا، إذ ركز اهتمامه عليها، تمنت لو كانت قد أقفلت

www.liilas.com

فمها، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، وستفضل الموت على التراجع. وتنحنحت، ثم قالت بصوت متقطع: «سا... ماذا تفعل هنا بعيداً عن التصوير؟»

أحدث بيديه حركة أشبه بمحاولة الليث الواثب وقد أبرز مخالبه، وهو يصرخ: «وماذا سوى تعقب آثارك لكي أتشاجر معك؟»

فرفعت أنظارها إلى أعلى، كذلك فعل جيري. كانت سحب الغبار السوداء التي أثاراها، تتحرك ببطء في الجو، لتتوجه ناحية منطقة التصوير. واستنتجت من هذا جوابا لسؤالها، ولكنه لم يكن من هدوء المزاج بحيث تعبر عن تفهمها للأمر. وبدلاً من ذلك قالت بصوت عذب: «على كل حال، لا يجب أن تحمل جيري خطأ ذلك. فقد كنت أنا التي أقود السيارة.»

همس: «فليمنحني العون.» ودون أن يلتفت إلى الرجل الآخر، قال له: «إذهب من هنا.»

صعد جيري إلى سيارته مبتعداً. واستدار آدم إليها يصب عليها سخطه قائلاً: «أيتها الحمقاء. ألا تدركين مقدار الضرر الذي كان يمكن أن تلحقيه بنفسك؟ كان ممكناً أن تفقدي بصرك...»

صرخت فيه وقد اتسعت عيناها وهي تشعر في أعماقها، بالخوف من وجودها معه بمفردهما: «ولكن ذلك لم يحدث.» وأرادت أن تلطف من الجو فابتسمت وهي تهز كتفيها وتمد يديها قائلة بمرح: «وبجانب ذلك، فانني مؤمّنة على نفسي.»

خرج من حلقه صوت مختنق وهو يتقدم نحوها ويمسك

بها من كتفيها يهزها بعنف، غير مبالٍ بما قد يحدث ليديه من جروح بسبب شظايا الزجاج المتساقطة منها.

أحنت رأسها أمام ثورته، ومدت يديها تتمسكان بأعلى ذراعيه وقد شعرت بالعجز البالغ أمام قوته البادية، وبأن كل ما في العالم قد أصبح خطأ في خطأ. وأطلقت صرخة من بين شفتيها المرتجفتين.

توقف ليجذبها نحو صدره الصلب يحتضنها بخشونة وهو يزمجر بصوت منخفض،كان في أذنيها أسوأ من صراخه السابق: «إذاً، فأنت مؤمّن على نفسك. أليس كذلك؟ إنني متأكد من أنه سيكون في ذلك عزاء وسلوى لوالديك عندما يعلمان أنك قتلت بحادث سيارة.»

زاد اتساع عينيها ذعراً وهي تشعر بالرجفة تسري في جسده القوي وهو يقول ذلك، وفكرت وقد تملكتها مرارة عميقة، في مقدار حماقتها وغبائها. فقد كان هو في الحقيقة، خائفاً.

كان صراخه في وجهها وثورته تلك، نابعان من خوفه عليها، وكل ما قالته له لم يكن له موجب على الإطلاق.

رفعت يداً مرتجفة تلامس وجهه. لم ير يدها ترتفع إلى وجهه، وذلك في غمرة تركيزه على تعنيفها، ولكنه أجفل وهو يشعر بأصابعها تمران على جلده المضطرم. وقالت برقة: «آدم، لقد كان هذا حادثاً، ولم يتضرر منا أحد. لقد تصرفنا بتعقل ووضعنا الأحزمة، وكنا مستمتعين بالنزهة عندما حدث ذلك.»

ردد كلامها وهو يشتم، قائلاً: «تصرفنا بتعقل.» لكنه هدأ، في النهاية، وأخذ يستمع إليها. وبدأ عجبها

www.lilas.com

منه يزداد. لقد كان اول ما اكتشفته فيه، هو رقته، والآن وجدت الصبر. وتابعت قولها وهي تنظر في عينيه: «لقد تحطم الزجاج الأمامي للسيارة في الطريق من الأحجار التي كانت تنثرها عجلات سيارات الشحن المارة بنا. ولم نكن قد سرنا بعد بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة، ولم يكن ثمة ما نخشى من الإصطدام به.»

قال بخشونة وقد لوى شفتيه: «إنك لا تعرفين كيف بدت المسألة. لقد كانت السيارة تدور حول المكان، ثم بدأ المحرك يهدر. ثم سمعت صوتاً هائلاً وقرقعة عالية تبعها ضجيج الكابح، وبدا وكأن السيارة بأكملها قد اختفت داخل عاصفة من الغبار أثارتها العجلات الخلفية. تباً لذلك. إنني لم أستطع أن أنظر إلى ما حدث، يا إيفون.»

قالت برعب: «يا الهي.» ثم تنهدت بندم وهي تتابع «إنني آسفة. لا بد أن منظري كان فظيعاً.»

نظر في عينيها قائلاً ببطء: «لقد انقص منظرك هذا، عشر سنوات من عمري.»

لم تكن منتبهة إلى أصابعها التي كانت لا تزال تمر بها على وجهه، ولا إلى ملامحه التي لانت الآن من جراء ذلك، وتابعت تقول: «كل ما أستطيع قوله هو اننا لم نحلم بوجود متفرجين علينا، ولم يدر في خلدنا أنك تراقبنا.»

قال موافقاً: «طبعاً، لم يدر في خلدكما ذلك. إياك أن تعودي إلى مثل هذا العمل مرة أخرى.»

هزت رأسها دون تردد، دون أي تفكير أو فزع من أن تدع مخاوف شخص آخر تؤثر على تصرفاتها وقالت: «كلا لن أعود إلى مثل ذلك. هذا وعد مني.»

حدق فيها طويلاً بنظرات متفحصة صامتة، ليتنهد بعد ذلك، وقد زال التوتر من جسده.

فجأة، بدا في غاية الإنهاك وهو يقول: «أظن هذا ما عليك أن تفعليه. هيا، نعود الآن، ولنجرب أن تنظفي نفسك من هذا كله قبل أن يحدث لك أي ضرر.»

أعادها كلامه هذا إلى واقع ما حدث، فنظرت إلى نفسها ليزداد ذعرها، لم تكن لديها فكرة عن شكلها الذي كان مكسواً بشظايا الزجاج، وأمسك بها آدم دون اهتمام بذلك. لماذا يفعل ذلك بينما هو معرض للجروح من جراء لمسها فقط؟ وامتدت يداها تنفضان عن ملابسه ما علق بها منها. ولكنه منعها من ذلك محذراً بهزة من رأسه، وهو يقول: «حاذري من الشظايا.»

طرأت عليها فكرة أخرى جعلتها تتجمد ذعراً. وحاولت أن ترفع يدها إلى رأسها، ولكنه أمسك بيدها تلك ينزلها قسراً.

عند ذلك، علمت، ولكن كان عليها ان توجه إليه وقد امتلأت فزعاً، هذا السؤال: «هل ثمة شظايا في شعري؟»

أجاب: «إنه مليء بها.» وسكت لينظر إلى أساريرها الجزعة بشيء من التسلية.

أدارت إليه عينيها القاتمتين تحدق فيه بهلع وهي تشهق قائلة: «يا الهي، كيف سأستطيع تخليص شعري منها؟»

أمسك آدم بأصابعها يقودها نحو سيارته. لقد خمدت ثورته تماماً الآن، وتتابعت أشياء، بين تلك اللحظة التي كان فيها في منتهى الهياج، وبين اللحظة التي أخذ يهزها فيها، حدثت أشياء هدأت من ذلك العنف والهياج، ليعود إلى

www.lilas.com

صفائه المعتاد وهو يقول لها بلطف: «لا تقلقي، سأهتم أنا بذلك.»

صرخت شبه باكية: «ولكن، كيف؟»

قال ملك الشتاء وهو يلقي عليها نظرة حازمة: «إيفون، ثقي بي.»

الفصل السادس

لقد قال لها: «ثقي بي.» ومن هنا، ابتدأت سلسلة خفية من التفاعلات في أعماقها، لم تكن لتنقطع.

لقد قادها إلى السيارة حيث أخرج من صندوقها بطانية نفضها ثم فرشها على المقعد لتجلس إيفون عليها، ثم قاد السيارة عائداً بها إلى المساكن.

عندما وصلا، طلب منها أن تنتظر برهة، ثم دخل ليعود بعد لحظات حاملاً منشفة حمام وفرشاة. ولف رأسها بحذر بالمنشفة، ثم أخذ ينفض ملابسها بالفرشاة.

كان يضربها بالفرشاة وقد بان عليه الإستمتاع بذلك، بينما كانت هي لا تكاد تثبت على قدميها مع كل ضربة ليتصاعد صوتها المتذمر كمواء قطة جريحة. وكان هو يضحك لصوتها هذا ويزيد من ضربات الفرشاة.

كان كل هذا لا يزيد عن كونه تصرفات سطحية لا تحمل أي معنى آخر.

إنما الذي حدث حقاً، كان في داخلها وقد أفزعها. ذلك أنها أخذت تراقبه من تحت أهدابها المسدلة، متأملة في عضلات جسده المتناسبة وقد انعكست عليها أشعة شمس العصر، لترسم ظلالها بين ثناياها، وتغير من لون عينيه، وتشعل ناراً داكنة في شعره القاتم المحمر، الذي كان يتناقض مع لون بشرته الذهبية.

عندما انتهى من نفض ثيابها تماماً توقف، ثم مال إلى

www.liilas.com

للخلف واضعاً يديه في جيبي سرواله وهو يقول رامقاً إياها بنظرة متألمة وقد قطب جبينه: «حسناً.»

استعادت هدوءها، وحدقت فيه. كان كل ذلك مشهداً تمثيلياً. كان كله ناراً وظلالاً، وعرضاً سحرياً تقليدياً... إنها لا تريد أن ينظر إليها ويراها... ذلك أن الأرنب سيقفز الآن من القبعة... وستصفق لذلك مبتهجة... وسينسحب المهرج بعد ذلك دون أن يلحظه أحد...

أفاقت من تصوراتها وهو يقول لها: «لا تلمسي شعرك الآن. دعيه ملفوفاً بالمنشفة إلى أن تخلعي ثيابك هذه وتأخذي حماماً. إنني ذاهب لأستبدل ثيابي أنا أيضاً. وسأعود إليك بعد عشر دقائق.»

أومأت برأسها مستجيبة بجد وانتباه تامين. وضاقت عيناه وهو ينظر إليها، ثم قال ببطء: «إنني أدفع أي شيء في سبيل أن أعلم ما يدور خلف عينيك الغامضتين هاتين.»

تجمدت وقد قبض عليها في الجرم المشهود، وسرعان ما تلاشى تأثر المتفرجين، واختفى الأرنب والقبعة في سحابة الدخان التي اكتنفت المسرح.

قالت: «لا أدري عم تتحدث. لا شيء يدور في ذهني.»

أشاحت بوجهها، لتدرك، بعد ذلك، أنها أخطأت في تمثيل دورها إذ كشفت نفسها في إنكارها السريع ذاك، وكان أفضل لها كثيراً لو أنها بدلاً من ذلك، حدقت فيه ببساطة مظهرة عدم الفهم لما قاله.

لقد أخبرتها ابتسامته البطيئة اللاذعة بذلك. وأغمضت عينيها لتخفي فشلها، ومن ثم استدارت لتسير نحو السلالم المؤدية إلى حيث تختلي بنفسها.

www.lilas.com

قال آدم يوقف هربها نحو مسكنها: «إيفون.» فوقفت تنظر إليه متسائلة ويدها على مقبض الباب، فعاد يقول: «لو كنت مكانك، لغسلت جسدي جيداً بالماء قبل أن... أضع الصابون عليه.»

فتحت فاها لدى سماعها هذه الكلمات التي كانت بريئة في معناها، حارة في طريقة لفظها. واشتبكت نظراته القوية بنظراتها، لتندلع النار في جسدها، وعاد يقول موضحاً كلامه: «لكي تتخلصي تماماً من الشظايا. إن جلدك أرق كثيراً من جلدي.»

ما الذي قاله لها؟ وما الذي عناه في الحقيقة؟ وقالت له بصوت مرتعش النبرات: «سأكون... حذرة.»

قال بلطف وحزم: «ترين أنني لا أريدك أن تتضرري، لا نفسياً ولا جسدياً.»

لم يكن لما قاله أي معنى خاص. كان كله يدور حول نتيجة الحادث والخوف الذي تملكه عليها. لقد حدثت نفسها بذلك، ولكن لسبب ما، لم تستطع أن تحمل نفسها على تصديقه، وكان عليها أن تغطي وجهها بيدها المرتجفة بعد أن انتصر عليها.

دون أن يضع يده عليها، شعرت بتوترها يتلاشى وهو يقول لها وكأنه يطلقها من الأسر: «سأراك بعد دقائق قليلة.»

كان لكلماته معانٍ متعددة هي خارج إدراكها. واندفعت إلى الداخل، وخلعت ملابسها ثم دخلت الحمام.

لقد قال لها: «ثقي بي.» وكان هذا ما فعلته على مدى الأسابيع التي مرت.

لقد اندفعت في حياته بشكل عنيف. كانت صقراً زاعقاً

يبحث عن معركة يخوضها. وقد ساعدها هو على نيل ما تريد. لقد أعطاها كل فرص النضال التي طلبتها، ويسّر لها خوض كل مشكلة، وقدم لها كل سبب لكي تقذف في وجهه نيران مزاجها العنيف، ومع ذلك، نجح، بطريقة ما، في أن يكون هو المنتصر على الدوام. وبطريقة ما، نجح أيضاً في أن يتحول بتلك العلاقة التي كانت قائمة بينهما على النزاع والخصام، يتحول بها نحو علاقة راقية مليئة بالحيوية والنشاط.

إن كل قرار كانت وضعته أساساً لحياتها، قد ألغي. كانت قد قررت أن لا تمثل مرة أخرى، ولكن، ها هي تعود إلى التمثيل... وأن لا تخضع لسيطرة أي إنسان، ولكنها الآن قد عدلت من كل امورها بكامل رغبتها نزولاً عند طلب إنسان آخر. وما كانت لتتزحزح من مزرعتها في مونتانا، لتجد نفسها، في خلال أسابيع قليلة ولدهشتها الكبرى، في جنوب أريزونا. لقد اكتشفت في نفسها مشاعر الرقة والصبر التي وجدت التعامل بها في منتهى السهولة. وكأنما كانت دوماً هناك، كبصل الزهور، دفينة في التربة طيلة فصل الشتاء، تنتظر مجيء الربيع لتتفتح وتزهو في دفء الشمس.

ألم تقل انه يريد أن يغيرها؟ ألم تحذر نفسها من أن ذلك سيحدث؟ ألم يكن في استطاعتها التوجه بالإنتقاد نحو نفسها قائلة: «لقد سبق وحذرتك من ذلك؟»

لكنها لم تجد أياً من هذه الأشياء التي كانت تخشاها. إنها لم تفقد ذاتها، في هذا التغيير، كما كانت تتوقع خائفة. بل بالعكس، وجدت أنها قد أصبحت بحالٍ أفضل مما كانت

تتمنى لنفسها أن تكون. لقد ابتدأت تكتشف ذاتها وقد امتلأت إعجاباً. عدا عن أن ما هزها تماماً هو أن رجلاً فرداً، رجلاً واحداً فقط وبمثل صلابتها هي وثباتها، ومن دون أية سيطرة او هيمنة عليها، هذا الرجل وحده هو الذي دفعها إلى هذا.

إن الرهبة تكاد تدفعها إلى الصراخ، ورفعت وجهها إلى رشاشة الحمام ليتدفق الماء عليه غامراً كل أجزاء جسدها.

كانوا، في بيئتها هذه، يعيشون في عالم عابر غير مستقر، مليء بالوهم والزيف. وقد أنتجت الرغبة في العمل في الأفلام، علاقات عميقة بين بعضهم البعض. كانت تبدو أقوى من الزمن، ولكنها كانت لا تلبث أن تنفصم لتتحطم الإرتباطات الناجحة ويتوجه الأفراد نحو أشخاص آخرين وآفاق أخرى. وعندما كان يلتقي أحدهم بالآخر في المناسبات، تبدأ الذكريات في التدفق على ألسنتهم بسرور... (ما أجمل أن أراك مرة أخرى... ما هي أخبارك؟... زوج جديد؟ والأولاد؟...)

هكذا، كانت العلاقات التي قاومت الزمن وطراز الحياة هذا قليلة. وقليلون الذين كانوا في استطاعتهم تحمل مثل هذا الجري المحموم. تغييرات كثيرة كانت تحدث وأشياء قليلة من الممكن أن يستمر المرء معها. وقد تعلمت إيفون أن لا تستمر مع أي شيء، بل تغربل ما يحدث، وتراقب بعينين مفتحتين. وهذا هو السبب في مقاومتها الشديدة لتغيير ذاتها. إذ كانت هذه الذات هي الوحيدة التي سمحت لنفسها بالإعتماد عليها، لتتنكر هذه الحقيقة بعد فوات الأوان.

صمتت إذ وجدت نفسها تشهق، بصوت عالٍ، شهيقاً

www.lilas.com

عميقاً لا إرادياً، وقد تقلصت ملامحها من الألم. لقد كانت تعرف كيف تقوم بدور حياة أي إنسان ما عدا حياتها هي... حياتها هي التي لا تعرف كيف تسير بها.

لقد قال لها: «ثقي بي.» وقد فعلت. ولكنها ما زالت لا تعرف من هو هذا الرجل الذي منحته ثقتها. إن كل شيء حولها يدل على هذا الرجل، ولكن ليس على شخصيته الحقيقية. إنها لا تعرف كيف تسند نفسها إزاء هذا الرباط غير المرئي بينهما والذي يقوى يوماً بعد يوم. أو كيف تعد نفسها لذلك الشعور الفظيع بالخسارة عندما تأتي نهايته.

بدأ الماء في الرشاشة يبرد، ارتجفت ووقفت تحته بقدر ما تستطيع لأسباب لم تستطع أن تدركها أو تفصح عنها، إلى أن لم يعد في استطاعتها تحمل البرودة اكثر من ذلك. فأقفلت الصنبور ثم تناولت المنشفة تنشف جسدها ثم ترتدي معطفاً قطنياً ناعماً شدته حول وسطها.

سمعت حركة خفيفة وراء الجدران الرقيقة، وخرجت من الحمام لتجد آدم واقفاً في المطبخ ومع أنه لم يكن قد زارها في عربتها قط من قبل، فقد بدا عليه وكأنه يشعر أنه في بيته.

كان قد أخذ حماماً هو أيضاً، وقد ارتدى سروال جينز وقميصاً أزرق اللون تركه مفتوحاً بإهمال. وكان شعره القاتم الخمري لا يزال مبتلاً.

تجمدت في وقفتها عندما وقعت عيناها عليه. وقد صدمت لمرأى صدره العاري، ونطق جسدها باحتجاج صامت وهي تشد حولها معطفها بيد، بينما تشده حول رقبتها باليد الأخرى حتى كادت أن تختنق.

نظر هو إليها دون أن يبتسم. لا بد أنه رأى كل شيء أمكنه أن يراه في تلك النظرة السريعة التي رمقها بها. كانت هذه هي عادته.

قال لها آمراً: «أحضري فرشاة شعرك.»

دخلت هي غرفة نومها وأحضرتها، ثم ضلت طريق العودة... لم تستطع أن تواجهه. ووضعت الفرشاة تحت ذقنها ثم حنت رأسها عليها لكي تبقى متمسكة بمعطفها مشدوداً حول جسدها.

قال لها آدم من خلفها حيث كان واقفاً عند الباب: «إستلقي على سريرك.»

أغمضت عينيها بشدة. لقد شعرت بنفسها مكشوفة تماماً، من قدميها الحافيتين، إلى جسدها غير المغطى كما ينبغي، إلى حالتها الذهنية. وطغى حضوره على ما حولها... هل ثمة معين لها؟

ذهبت إلى الفراش تستلقي عليه، ثم سمعته يتحرك، ثم سمعت حفيف ثيابه، ليسطع النور بعد ذلك في الغرفة. وزادت هي من إغماض عينيها، ثم أشاحت بوجهها.

وقف ينظر إلى المرأة المستلقية أمامه على السرير، للحظات طويلة. حدق في الجسد الممشوق الملتف في معطف رقيق يكشف اكثر مما يستر. في الساقين البديعتين الظاهرتين جزئياً من خلال المعطف، ثم في يديها النحيلتين... في عنقها ووجنتيها العاليتين وذقنها.

شعرت إيفون بهذه اللحظات الصامتة وكأنها أبدية. كانت مستلقية ترتجف وقد تصاعدت حرارة جسدها. كانت تعلم أنه اكتسحها بنظراته ورأى ما رآه، ولو وجدت القوة،

www.liilas.com/vb3

والفكاك من الأسر الذي تشعر به في حضوره، لصرخت عالياً.

ما لبث أن تقدم نحوها، ووضع يديه فوقها يجول رأسها إلى جانب السرير. رفع المنشفة التي تلف رأسها، ثم جعل شعرها الكستنائي يتدلى من فوق حافة السرير ليضع المنشفة تحت الجدائل التي كانت تصل إلى الأرض. ثم انحنى وبدأ بتسريح شعرها.

كان يتخلل عقد شعرها المتشابكة، بصبر ولطف، نافضاً الغبار وشظايا الزجاج من ذلك الشعر الحريري. واتخذ تسريحه لشعرها شكل المداعبة، إذ أخذ يصفف شعرها ويصقله، كما يصقل علاء الدين مصباحه السحري.

احتملت في عناء أحاسيسها المتوترة. وأخيراً عندما لم تستطع أن تحتمل أكثر من ذلك، فتحت عينيها الواسعتين لتشمله بنظراتها من أعلى إلى أسفل ثم قالت بصراحة تامة: «إنك غريب بالنسبة إلي.»

توقفت يداه عن العمل متجمداً في مكانه، واتسعت عيناه بحدة وهو يقول: «هل أنا كذلك؟»

همست بهدوء بالغ: «من أنت؟ إنني لا أدري من أنت.»

وضع آدم الفرشاة جانباً، إذ أنه كان قد انتهى من تسريح شعرها منذ مدة طويلة. أزاح المنشفة جانباً، ثم استقام على ركبتيه وأخذ وجهها بين راحتيه، ثم أحنى رأسه فوقها وراح يتفحصها بعينيه، وقال بهدوء: «إنك تعرفينني أكثر مما تعتقدين. ولكنك لا تريدين أن تجعلي نفسك ترى هذه الحقيقة.»

ارتجفت شفتاها. شعرت وكأنها تتأرجح على حافة هاوية عميقة.

www.lilas.com

عاد يقول وقد ظهر في نبرات صوته، رغبته في أن تعرف كل شيء عنه: «فكري.»

تعلقت عيناها بعينيه، ثم فكرت.

عادت بذاكرتها إلى أول ليلة تقابلا فيها، عندما انهار رجل الثلج وهو يقول: «إنني آسف يا إيفون لقد تجاوزنا الحد. لم أكن أقصد إيذاءك بهذا الشكل. إنني لم أعلم...»

ثم إلى المرة الثانية. «إيفون، ليس في هذا أي عذاب لك. إنه لا يمكنني إلا أن أتحداك. ولكنني لن أكلفك فوق طاقتك.»

وفي المرة الثالثة، أتاها سؤاله المتألم «لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟»

«إن وسائلك لا عيب فيها... إنني أكرهها... إنك لا تعطين شيئاً...»

«إذا أنت وضعت ثقتك بي، فإنني سأعيدك إلى نفسك. في كل وقت، يا إيفون.»

تفجر في أعماقها كل ما كانت تقاومه وتنكره منذ اللحظة التي قابلته فيها. واتسعت عيناها، وشهقت بصوت متحشرج، ولو لم يكن يضغط عليها بيديه القويتين يمنعها من الحركة، لوقعت من فوق السرير بعد إذ هزتها المشاعر المتدفقة.

ظهرت على ملامحه إمارات الانتظار وهو يرى ردة الفعل في التغير الذي حدث لها. ومال عليها بوجهه وقد اهتزت شفتاه. ولكنه لم يقبلها. وقال: «هل فهمت الآن؟»

قالت وهي تئن: «كلا.»

قال: «إنني أريدك. لقد شعرت بهذه الرغبة منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. إنني لا أنام الليل لشدة تفكيري بك.

إنتني في ضيق وجفاف وليس من أحد غيرك يبعث في نفسي الراحة. إن الرغبة فيك تسيطر عليّ تماماً.»

صرخت بألم: «كفى.»

قال كلمته العنيدة الهادئة: «كلا.» وبدأت يداه اللتان تحتضنان رأسها، ترتجفان وهو يتابع قائلاً: «لقد سألتني فأجبتك. لقد حان الوقت لكي تعرفي الحقيقة.»

قالت دون وعي: «لن أستمع إليك.» ولم تعرف ماذا قالت، وإلا لاستردت تلك الكلمات.

أغمض عينيه. ها هي نفسها تؤذيه بكلامها مرة أخرى. قال عابساً: «بل يجب أن تستمعي إلي. ستفعلين ذلك. يجب أن تسمعي ما أقول لكي تتحملي، بعد ذلك، مسؤولية ما صنعته نحو نفسك. إنتني لم أردك قط للعمل في هذا الفيلم... حتى أنني لم أفكر في إمكانية ذلك بالنسبة إليك لأن الجميع كانوا يعرفون- أنك تقاعدت عن العمل. كانت المكيدة كلها من تدبير أبيك. فقد كان يعرف دوماً أن الدور في الفيلم سيعطى له، إذ أنني قد وعدته بذلك منذ البداية.»

صرخت: «ماذا؟»

كان يمزقها أشتاتاً بكل دقة وإحكام.

عاد يقول بزمجرته المعتادة: «ثم ظهرت في حفلة والديك تلك. وبدوت لي مختلفة عن كل النساء اللواتي قابلتهن من قبل. ما الذي فعلته بي... لقد أصابني تأثيرك بالدوار. نعم... لقد تعلقت بك. واستعملت كل ما يمكن أن يبقيك في لوس انجلوس. لم استطع أن أصدق أنك تمضين حياتك في تلك العزلة لكي تذوي شيئاً فشيئاً كالنبات. ولم أحتمل التفكير في إمكانية اختفائك مرة أخرى. لقد أخفيت نفسك

في كهف وسددت بابه بأجمة من شجيرات العوسج، وما كنت لتخرجي أبداً. كم كنت ضائعة في ذلك الحين.»

تفجرت الدموع من عينيها المعذبتين لتسيل على معصميه، وتنهدت قائلة: «لم يكن ثمة شيء من ذلك صحيحاً.»

تأوه بنفاد صبر وهو يلقي رأسه على كتفها قائلاً: «أوه، إيفون كله كان صحيحاً. كل جزء منه. وإنما لم تكن المفاهيم كما ظننتها. هل تستطيعين استيعاب ما أقول؟»

كان جسدها يهتز بالبكاء، واستدار وجهها نحو عنقه الدافيء وهي تسأله: «لماذا فعل أبي ذلك؟»

أجابها: «لقد فعل ذلك لأنه يحبك. لقد أوضح لي ذلك في الحفلة بعد أن تبادلنا، أنا وأنت، ذلك الجدل. وكنت أنا قد سبق ورأيت مقدار قوتك، وميزت فيك إمكانية قيامك بدور «حنة» بشكل لم أحلم به من قبل. لقد فزت، بضربة واحدة، بالممثلة المتكاملة التي كنت أبحث عنها، والوسيلة التي تجعلني أحتفظ بها، فاستعملتها دون رحمة.»

قالت: «أتخبرني بكل ذلك الآن؟ بعد كل ما حدث، وبعد كل ما صنعه الواحد منا تجاه الآخر؟ لا أستطيع أن أفهم شيئاً بعد الآن.»

همس: «ذلك لأنك سألتني من أكون.»

تركها فجأة، ثم انتصب واقفاً على قدميه، فقفزت هي لتجلس القرفصاء على السرير المشعث عاقدة ذراعيها بشدة وكأنها لا تطلب شيئاً سوى أن يعود فيسجنها بين ذراعيه. وصرخ هو فيها: «من أكون أنا، يا إيفون؟»

استدارت تحمل الوسادة ثم تقذفه بها بكل قوتها وهي تصرخ: «إياك أن تصيح بي.»

www.liilas.com

وضع يديه على حافة السرير ثم اتكأ عليهما، وقد ظهر صدره من خلال قميصه المفتوح، كما ظهرت عضلات كتفيه العريضتين. ثم دفع بوجهه الغاضب نحو وجهها قائلاً من بين أسنانه: «لا تخبريني بما يجب عليّ عمله. من أكون أنا، يا إيفون؟»

مسحت وجهها الشاحب بظاهر يدها وهي تتنفس بصعوبة وقد رفعت إليه عينيها الحائرتين المعذبتين كانت تحاول مستميتة، أن تهدىء من التغير المفاجىء في مشاعرها، لكي تستعيد تماسك نفسها، لكي توقف ردة الفعل الوحشية لتصرفه هذا تجاهها. ما الذي كان يحاول أن يقوله لها الآن؟

أعطته ما ظنت أنه يطلبه، وذلك بشكل سؤال هو: «إنك لست الشخص الذي ظننت.»

أغمض عينيه ببطء وأحنى رأسه، ثم قال بصبر فائق الحد: «حسناً. إنني لا أعرف ذلك. إنني لا أعرف كيف ترينني، وكل ما أستطيعه هو التخمين.»

جمدها في مكانها إدراك مفاجىء فمالت بحركة مفاجئة ومدت يديها الاثنتين تميل بهما وجهه المنحني ثم ترفعه إليها.

قالت بحيرة وهي تحدق في أعماق عينيه الرماديتين: «لقد ظننتك انساناً بارداً مسيطراً. ظننتك جافاً متفوقاً، وقد كنت أتساءل إذا كنت تشعر بأية عواطف إنسانية دافئة.»

بدت في عينيه نظرة ساخرة وهو يقول بمرارة: «ببوارك رجل الثلج؟»

تنهدت وهي تلاطف وجهه. لقد اعتادت أن تتساءل عما

إذا كان في إمكانه أن يشعر بالألم. وأجابت قائلة: «لا بد أنك سمعت بهذا اللقب. فقد قلت إنك تقرأ كل شيء.»

رفع حاجبيه قائلاً: «لقد كنت أداريك واتحايل عليك.»

قالت بجفاء: «حسناً. أظنني مسؤولة جزئياً عن معاملتك تلك لي، لطباعي هذه التي جعلتني أتخلص من ثلاث مربيات إبان طفولتي.»

انفجر، عند ذلك، ضاحكاً بعنف. ثم أدار وجهه إلى إحدى يديها. فضغطت براحتها وجهه الدافىء بسرور قائلة: «هذا لا يعني أنني أصفح عنك. إن هذا يعني فقط أنني أفهم دوافعك.»

قال: «إنها أحسن مما كنت تظنين.» وحرك فمه في راحتها وهو يزيح خصلة من شعرها عن عنقها.

هزه جوابها وهي تقول مرددة كلامه: «نعم، إنها أحسن مما كنت أظن. آدم، لماذا أخبرتني بكل هذه الأشياء؟»

تراجع عن ذراعيها المرفوعتين بعنف جعل قلبها يقفز من موقعه، ثم استدار مبتعداً وهو ينظر إليها من فوق كتفه قائلاً: «لأنني تعبت. تعبت من العمل ساعات طويلة، والخصام معك في كل لحظة تسنح بذلك. لقد تعبت من مراقبة تصرفاتك غير المتفهمة، تعبت من القيام بكل الأعمال بينما أحاول المحافظة على برودة اعصابي في نفس الوقت. لم يحدث لي مثل هذا قط من قبل. لقد ألقيت بكل ذلك إلى الجحيم.»

هل تراها ستكف يوماً عن الحيرة بشأنه؟ إن العيوب ومظاهر الضعف التي استماتت مرة لكي تكتشفها في ملك الشتاء، يقدمها إليها الآن بيدين مفتوحتين. ولكن ردة فعلها

www.liilas.com

لهذا لم تكن تحوي أي أثر من الإزدراء، كما أنها لم تجعلها تفكر في الابتعاد عنه.

قالت برقة: «لقد أخفيت مشاعرك الحقيقة هذه بشكل رائع، وأنا متأكدة من أن ليس ثمة أحد يعرف شيئاً عن ذلك.»

أطلق ضحكة قصيرة وهو يقول: «لا بد أنك تمزحين، إنهم جميعاً يعرفون ذلك، عليهم اللعنة.»

قالت بإصرار وهي تنزل من فوق السرير وتسوي من معطفها: «كلا.» وتقدمت نحوه ثم ألقت يدها على كتفه، وشعرت بحرارة جسده تحت قميصه الرقيق وهي تقول: «إنهم يروننا نتشاجر. إنهم يرون إنجذاباً وتباعداً. ولكنك ما زلت تزاول عملك كالعادة. إنني لم أحترم مخرجاً آخر قط بالقدر الذي احترمتك فيه. لقد جعلتني أرغب في العمل مرة أخرى بعد سنتين من حياة فارغة خالية من أي هدف، فرضتها على نفسي. لقد جعلتني أرغب في التمثيل بشكل أفضل مما قمت به من قبل. إنني أشعر بالخوف حتى الموت مما قد يأتي به الغد، ولكنني، أيضاً، أشعر بالبهجة والحبور.»

مال برأسه يستمع إليها. إنها لم تدرك ما الذي كشفت عنه في حديثها القصير ذاك. كانت مشغولة عن ذلك بملاحظة أشياء أخرى. لقد كانت تنظر إلى عظام وجنتيه، وإلى كيفية ارتفاع شعره الأحمر القاتم عن ياقة قميصه.

قال بلهجة شاردة وهو يمسح عينيه بأصابعه: «ربما جعلني هذا راضياً عن نفسي.»

بدت في صوتها نبرة ساخرة وهي تقول: «إنك لا تعرف الرضى عن النفس.»

أجاب بهدوء: «ألا تظنين ذلك؟ ألا تدركين عنصر الحقيقة في جدالك وفي اللقب الذي أطلقته عليّ الصحف؟ رجل الثلج البارد الجاف. لقد قلدت الحياة أكثر من اللازم كما أظن. لقد استغرقت في تمثيلها وتصويرها أعواماً، والآن، أجدني نهماً إلى أن أقوم لنفسي بعمل حقيقي. أتعلمين أن من الأشياء التي جذبتني إليك في أول ليلة عرفتك فيها تلك، هي كلمة صغيرة قلتها لي؟»

قالت: «ما هي؟»

استدار إليها وهو يقول متمهلاً: «لقد قلت، تحذير عادل.» وابتسم مستطرداً «لقد كنت ثائرة لما ظننت أنني صنعته بك، ومع ذلك كنت تمنحينني الفرصة للهرب قبل أن تنقضي عليّ. لقد وجدت هذه الفكرة شديدة الإغراء حقاً.»

بدت في عينيه نظرة مفترسة لم تدرك معناها. فاتسعت عيناها عجباً وهي تتراجع أمامه دون وعي إلى أن اصطدمت بالسرير خلفها، وهي تهمس: «لقد كنت فقط، أخيفك بهذا القول لكي تبتعد.»

تمتم ساخراً: «إنني إذن، قد أخطأت فهم معنى كلامك ولم أهرب.» وكان في هذه الأثناء، يتقدم نحوها ببطء وهو يتابع: «ترين أن تصورك، وأنت تقفزين عليّ، قد أعجبني. وهذا كان أساس تصرفاتي نحوك منذ ذلك الحين.»

لهثت وقد اتسعت عيناها، لقد ظفر بها... ظفر بها إلى الأبد كما يبدو. لقد طاردها دون لين متخللاً أفكارها وأحلامها وكل لحظة في حياتها.

قالت متلعثمة: «إنني... لا أستطيع التفكير في...»

حدق في عينيها بنظرات مسيطرة وهو يقول: «حسناً،

www.lilas.com

أريدك أن تفكري، أريد أن تسري المعرفة في دمك. أتدركين السبب الحقيقي الذي جعلني أخبرك بالحقيقة هذه الليلة؟ لقد أعطيتني تحذيراً عادلاً لينعكس إلى حل عادل. لا أريدك أن تستجيبي بعد الآن، إلى هواجسك وتصوراتك، أو إلى أي أفكار مغلوطة. فستعرفين الآن من أنا وما الذي فعلته لأجلك.»

قالت بصوت كالأنين: «آدم...»

امتدت يداه تمسكان بكتفيها يجذبها إلى صدره، ويحني رأسه على رأسها. لم تعرف إلى أين توجه نظراتها، هل إلى عينيه، أم إلى فمه المتوتر... وأخذ قبضة من شعرها ليميل رأسها إلى الخلف وينظر في عينيها برهة، ثم يقبلها.

كانت عيناها مفتوحتين دون حراك. أبعد وجهه عنها ينظر إليها ملياً وهو يقول: «هل عيناك مفتوحتان الآن؟ هل ترينني؟ هل بدأ أخيراً، يفهم كل منا الآخر؟»

صرخت به: «ماذا تفعل بي؟»

أجاب هامساً: «هذا أجمل ما في الأمر. لن أفعل بك شيئاً، هذا هو السر. إذا أنا امتلكتك الآن، فسوف افقدك، ذلك لأنك تهربين، كل مرة، من هذا الشيء، انتبهي يا عزيزتي. إن اردتني، فعليك أن تأتي إليّ بنفسك، عند ذلك لا يكون هناك مذنب ولا ضحية. ولا ضرب ولا هرب. انك ستأتين بكامل مشيئتك، وإلا، فلن تحصلي على شيء أبداً.»

كانت تريد أن تصرخ به، ولكن الكلمات خرجت من فمها كالنشيج وهي تقول: «إنك معتوه.»

أطلق ضحكة مهزوزة وهو يبتعد عنها هامساً بقوله: «أعلم ذلك. إنني أكاد أجن من الانتظار ومن تمالكي

لمشاعري. وقد أتضرر من ذلك، ولكن لا مناص من هذا التصرف، فلا تتأخري في مشاورة عقلك. إن القلق يكاد يقتلني.»

مشى إلى الباب تاركاً إياها يتملكها الألم. ونظرت إليه وكأنها تشعر أنه أخذ قلبها معه.

زمجرت، وقد ثارت كرامتها، قائلة: «أفضل الذهاب إلى الجحيم بدلاً من الذهاب إليك.»

أجابها من فوق كتفه: «قد يكون الجحيم أفضل، على كل حال.»

توقف عند الباب، مبتسماً لها وهو يقول: «أهلاً بعودتك إلى عالم البشر، يا إيفون.»

www.liias.com

الفصل السابع

في اليوم التالي:

لم تستطع إيفون الرقاد. أما آدم فقد بدا في حال حسنة. ومن حسن حظها أن الهالة الداكنة التي ظهرت في الصباح حول عينيها، كانت مناسبة للدور الذي كان مسجلاً للتصوير ذلك النهار وهو عن الغدر، حيث تكتشف «حنة» زوجها بين ذراعي شقيقتها. عملت إيفون طيلة ذلك النهار الحار دون توقف، متجنبة الحديث، قدر استطاعتها، إلى أي إنسان، خصوصاً إلى أبيها. ولكنه، على كل حال، لم يفهم السبب تماماً، إذ أنه لم يكن ضمن أي مشهد للتصوير ذلك النهار ولهذا أمضى معظم النهار في مقهى «فينيكس».

في اليوم التالي:

كانت إيفون تنظر إلى طعامها متقززة. استجمع جيري شجاعته واقترب منها. لقد أخذ يتحدث، فقط، عن مقدار غضب آدم لمغامرتهما الصغيرة تلك، عندما أوشكت أن تفتك به. ولكنها ما لبثت أن أخذت تعتذر إليه بكل لطف. ذلك أن الذي حدث نتيجة لتلك المغامرة بالسيارة، وما لم يحدث، لم يكن ذنبه على كل حال. وتركت الرجل في حيرة رغم شعوره بالارتياح نوعاً ما، وسارت إلى حيث دخلت في شجار عنيف مع والدها كريستوفر.

كان والدها صبوراً ومنطقياً، ومليئاً بالحب وبالندم لخدعته تلك رغم نيته الحسنة.

عندما تركته إيفون في النهاية، كان الإحباط يملأ عينيها.

في اليوم الثالث:

أخذت ترى آدم في كل مكان يقع نظرها عليه. كان ينتقل هنا وهناك. كان يقف في الخارج ويداه على خاصرتيه، يتحدث إلى بعض العاملين في الفرقة تارةً، وإلى المصور تارةً أخرى، يستمع إلى الشكاوى، متقبلاً النصائح، مطيباً خاطر كل إنسان، ما عداها هي:

تعالوا إليّ جميعاً... كان هذا لسان حال آدم بالنسبة إلى الجميع. وكان أيضاً بالنسبة إلى إيفون كلما التقت عيونهما وهو يحدثها، صورياً، عن أشياء عادية تتعلق بالعمل.

كانت عيناها تردان عليه بعناد: «كلا. لن آتي».

كان من غير الممكن بالنسبة إليها، أن تفكر في أن تطارد الرجال الذين اعتادت أن تراهم يطاردونها على الدوام. كانوا يطاردونها محاولين إمساكها، عبثاً. وكانت ترفض الجميع. أما الرجل الوحيد الذي كانت تريد أن ترفضه حقاً، هذا الرجل لم يعد ثانية.

جاء اليوم الرابع، وما لبث، بعد ذلك، أن اكتمل الأسبوع بسرعة.

إنها لم تستطع أن تفهم سر هذا الاهتمام البالغ الذي يدور في ذهنها. لماذا؟ لماذا كل هذا؟ إنها لم تهتم يوماً بالعواطف إلى هذا الحد.

وفيما هي تتابع تصوير الفيلم، حاولت أن تهون الأمر على نفسها... وأن تأخذ وقتاً للراحة، أن تلجم طبعها الحاد، أن تستريح في غرفتها الموحشة.

www.lilas.com

لقد غرقت في مستنقع من الحيرة والبلبلة والقلق إلى حد لم تعد تجد لكفاحها ذاك أي جدوى.

حدث مرة أن انتهرها آدم لأمر تافه، فردت في وجهه محتدة. ولم تبد أية دهشة على وجهه. ولكن روتشيل التي كانت موجودة، ظهر على وجهها الإستياء التام من إيفون، فنظرت إليها باحتجاج غاضب، ثم تركتها مبتعدة، وكان هذا التصرف من روتشيل» ردة فعل سخيفة لأن إيفون كانت هي الجانب المتضرر... ولكن، كلا... ربما كان العكس، فإن الأمر كان أكثر تفاهة من أن يقودها إلى هذا...

خفضت ناظريها بإذعان، ثم قالت من بين أسنانها: «إنني آسفة.»

قال آدم بلطف: «لا بأس.» وتركها مبتعداً ربما إلى أمر تافه آخر. ويبدو أن هنالك دوماً أشياء تستدعي اهتمامه أكثر منها.

هل تراها تشعر بالغيرة؟ نعم... إنها تشعر بذلك. كانت تريد احتكار كل اهتمامه. فقط، لكي تتمكن من أن تنبذه رافضة. فقط لتجعله يعلم أنها لا تهتم بدعوته لها ولن تلبيها. وفكرت في أنه قد بات يعلم الآن هذه الحقيقة جيداً.

لا بد أن ثمة شيئاً خطأ في منطق آدم. وأخذت تفتش عن ذلك الخطأ. نقص ما، عدم كفاءة، ضعف بشري... فشل لا يغتفر.

أخذت تنظر في الأمر ملياً، وكانت تجلس جنباً إلى جنب، مع أبيها تحت مظلة خضراء مرقطة في فسحة تغطيها الأشجار على ضفاف النهر. كانت بعض الطاولات هنا وهناك يقدم عليها الطعام ثلاث مرات يومياً. وكان العاملون

في تحضير الطعام في منتهى الكفاءة في تحضير الوجبات حتى أن الغالبية كانوا يفضلون تناول الطعام هناك. بينما كان البعض يفضل الذهاب إلى البلدة لتناول طعام منتظم بالرغم مما يكلفهم ذلك من نقود. كان هناك فقط خمسة، وآدم طبعاً منهم، لهم عربات للطعام خاصة بهم، وكان لهم الخيار، طبعاً، في أن يتناولوا الطعام أينما شاءوا.

كان الخيار، بالنسبة إليها، مسألة فيها نظر. حيث أن الطعام كان برأيها، شيء يجب أن لا يدخل فمها. وفي ذلك المساء كانت الوجبة أميركية الصنع. لحمة، سلطة البطاطا، سلطة الخضرة من جزر وكرفس... وكانت رائحة الشواء على الفحم تشعرها بالغثيان.

كانت نظراتها تتبع آدم حيثما ذهب. وفي هذه اللحظة كان يتحدث إلى العاملين في المطبخ. كان دون شك، يثني على كفاءتهم. إنه لم يتوقف قط. وبينما كانت نفسها تظلم، شيئاً فشيئاً، تحت وطأة الشعور بالوحشة، كان هو يتألق بالحيوية والانتعاش.

قالت فجأة: «أبي.» كانت تناديه باسمه كريستوفر فقط عندما تكون شديدة الغضب منه، وقد توقفت عن ذلك منذ أيام. وتابعت: «هل تعتقد أن العدوانية هي طبيعة متأصلة في جنس الذكور؟»

تابع والدها اتجاه نظراتها، وما لبث أن حول عينيه بسرعة إلى مكان آخر، وهو يجيبها قائلاً: «حسناً، لا أعلم.» وبدت في عينيه نظرة تأمل، كان رجلاً موهوباً، واستطرد قائلاً: «إنني لست خبيراً ولا عالماً، ولكن سواء كان مصدر ذلك اجتماعياً أم هرمونياً، فإنه يبدو لي أن الذكر أكثر ميلاً

www.lilas.com

إلى العدوانية من الأنثى. يبدو أن نظرية التطور، وميولنا الخاصة، قد وضعت الذكر في مركز الصائد المسؤول عن إعالة أسرته. ولكن هذا لا يعني أنه ليس للأنثى ميولها العدوانية هي أيضاً، ولكن، ربما ميولها هي تتركز غالباً، حول الدفاع. أعني لحماية البيت والأولاد كما تعلمين.»

هتفت إيفون بلهجة الانتصار: «ها... إنني أعلم ذلك بالطبع.»

حسناً، إن هذا يفسر كل شيء. يفسر تصريح آدم برغبته فيها، ثم تراجعه، في ما بعد، عن ذلك. ثم سلبيته الحالية. لقد كانت تتوخى الدفاع، ولكنها لا تجد الآن شيئاً تدافع عن نفسها منه، ثم، لماذا حصل هذا؟ لأنه لم يكن، في الحقيقة، يرغب فيها بمثل القوة التي كان يظن...

شعرت لدى وصولها إلى هذه النتيجة، بمثل طعنة السكين في قلبها.

لم يكن والدها قد انتهى من حديثه، على كل حال. وتابع قوله وهو يفكر: «يجب أن يتملكنا الأسف لكوننا مجرد أتباع لغرائزنا وهرموناتنا. إن ما اعتقده هو أننا يجب أن نتغلب على هذه الأسس، لنختار هويتنا الخاصة. إن التصرف الإرادي هو الأقوى والأكثر سمواً في أنفسنا. فلنأخذ، مثلاً، أياً من تصرفاتنا الطاغية التي تهيمن علينا، سواء كانت الغضب أم الألم، أم الرجاء أم الحب، ثم نقول: «سأفعل هذا.» أو «لن أفعل ذاك.» إن نجاحنا في ذلك هو انتصار للروح مهما كان الثمن. ان تمرين الإرادة هو فن الإنسانية في حالة الوجود.»

بينما كان يتكلم، كانت أصابعها المتصلبة تعبث بشعر

صدغيها، وعندما انتهى من كلامه، كانت كل محاولاتها المحمومة لإخراج آدم من حياتها بموجب اقتناع منها بعدم كفاءته واستحقاقه لحبها، كل ذلك قد تحطم في أذنيها بصوت كهزيم الرعد.

قالت بمرارة لوالدها الذي استولت عليه الحيرة: «أوه، كلامك هذا لم يساعدني بشيء. إنك غير نافع إطلاقاً.»

اندفعت واقفة، ثم ابتعدت بسرعة. ذهبت إلى عربتها، ثم إلى فراشها، لا لتنام، بل لتحلم.

عمل ارادي...

وبدأت تستعيد كلماته...

«إني أريدك. إن الرغبة فيك تسيطر علي تماماً.»

«ستعطينني نفسك بكامل مشيئتك، وإلا فلن تحصلي على شيء أبداً.»

«أريدها عارية من كل شيء.»

يا إلهي... هل معنى هذا أنه سيحتل تفكيرها بقية الأيام؟ إن الرباط بينهما قد أصبح أشد قوة ومتانة... إنه يضغط على روحها، وهو مستمر أبداً. وضربت الأرض بقدمها بعناد. ظهر الحقد على وجهها... لقد وقعت في الشرك بين كرامتها الحمقاء ورغبتها.

كانت حساسيتها نحوه قد تصاعدت إلى درجة كانت تظهر في كل لحظة يكون هو موجوداً فيها. وفي ما يفعل.

أخذت تفكر في ذلك قبيل الفجر وهي تحمل في يدها فنجاناً من القهوة وقد تقوقعت في جلستها على الأريكة. ذلك أن عليها أن تترك غرفتها في خلال دقائق، لتبدأ يوماً آخر طويلاً.

www.lilas.com

لم تسمع القرع الخفيف على بابها.

كانت مستغرقة في التفكير في شعر آدم وكيف يتزل على جبينه وكيف يرتفع فوق ياقته. وكيف يشتعل لونه القاتم المحمر في أشعة الشمس.

فتح الباب وبرز منه رأس آدم وهو يقول: «إيفون.»

قفزت من مكانها صارخة، بينما انسكبت القهوة على يديها لتسيل على معطفها المنزلي. وحدقت فيه وهي تقول بحدة: «ماذا تريد؟»

ما أسوأ اختيارها لكلماتها، ولكنه لم يهتم بذلك، على أي حال، إذ دخل العربة وعلى وجهه تعبير جاد، ودخل المطبخ الصغير يحضر بعض مناديل ورقية ثم ناولها لها لمسح القهوة عن ثيابها.

قال لها، بينما هي تمسح يديها وثوبها، بحركات عصبية: «إنني بحاجة للتحدث إليك. لقد حدث تغيير في برنامج العمل.»

قالت متذمرة دون أن تنظر إليه: «وما الذي حدث اليوم؟»

قال: «سنصور اليوم مشهد موت والد «حنة».» وتجمدت هي في مكانها وقد تغير وجهها ومالت بجسدها في حركة احتجاج ثم قالت: «كلا. لا يمكنك فعل ذلك. لم يكن هذا ليحدث إلا بعد أيام وأيام.»

قال بهدوء تام: «سنصوره هذا النهار.» كان ينظر إليها وقد بان الإضطراب في عينيه.

نظرت إليه بتضرع وهي تهتف: «ولكن، لماذا إن هذا شيئاً لم يكن منتظراً. إنني غير جاهزة له.»

تنفس بعمق. كان ثمة خطان حول فمه. وقال: «إنك

جاهزة. إنك تعرفين كلمات دورك.» ونظر إليها برهة ثم استطرد «إن وزنك ينخفض وأنت تعرفين اهتمامي بالنسبة إلى النقص في الوزن. لا بأس بذلك في هذا المشهد الذي ستر تاحين منه بعد الآن ولن تعودي للشعور به معلقاً فوق رأسك. وفي نهاية النهار، سينتهي قلقك نهائياً بالنسبة إليه، أليس كذلك.»

هل كان مهتماً حقاً كما لو أنها لم تره من قبل. لم تكن قد لاحظت من قبل نقصان وزنها. وقالت بسرعة: «سآكل، وسأعيد ما فقدته من وزن، ولن يكون عليك أن تعاود تنظيم الأشياء.»

أحنى رأسه وقد بان عليه الإنهاك، ثم ما لبث أن وقف وأمسكها بذراعيها ثم أوقفها على قدميها، وقال لها بخشونة: «كل شخص هنا يعلم بالخطة الجديدة للعمل. ولن يمكنك تغييرها. سنصور المشهد هذا النهار، وسأخبرك الآن عما يجب أن تقومي به وأريد منك أن تتبعيه خطوة خطوة. هل تسمعينني؟»

أومأت برأسها وقد بان الخوف على وجهها وتشابكت نظراتهما.

قال برقة: «عليك، بعد دقائق قليلة، أن تذهبي إلى والدك كريستوفر. لقد سبق وتكلمت معه بهذا الشأن، ستجلسين معه في ماكياج كامل، وستتبادلان الحديث في شؤون الحياة. وستراقبين تغير مظهره، بعد ذلك ستمثلين المشهد، ثم ستعودين معه إلى غرفة التجميل وتلاحظين زواله مرة أخرى. أريد منك أن تري كيف يحدث خداع النظر ذاك. إن والد «حنة» سيموت ولكن والدك سيعود إليك حياً. هل فهمت؟»

www.lilas.com

انقبض صدرها. لقد فهمت. لقد تحدث إليها شارحاً كل شيء بكل ثقة وانتظام واهتمام شديد بالتفاصيل، وذلك بعطف بالغ. وهمست: «نعم. شكراً.»

أمسك بوجهها يلامس وجنتيها وهو يقول: «إنني آسف. إذ لا يمكنني أن أجعل هذا الأمر اكثر سهولة بالنسبة إليك. إننا سنأخذ راحتنا في العمل وليس ثمة موجب للعجلة أو الخوف. وما سيحدث، سيحدث، إن عاجلاً أم آجلاً. لكننا إذا لم نصور هذا المشهد اليوم، فلن نصوره بعد ذلك أبداً. إذ سنغير المشهد.»

قطبت جبينها وهي تقول بنظرة متفرسة في ملامحه: «ولكن القصة ستبدو ناقصة، ذلك أن موته هو مكمل لحبكتها.»

تنهد بعمق، ولم تفهم هي إن كان ذلك من أثر الضجر أم الندم، وقال: «إن ذلك لا يهمني في الحقيقة، فإن القصة لا تستحق كل هذه التكاليف. هل ناسبك التغيير الآن؟»

لم تكن متأكدة من ذلك، ولكن المشهد كان سيصور على كل حال، عاجلاً أم آجلاً كما قال، فمن الأفضل إذاً، الإستعجال به، وهكذا قالت تطمئنه: «نعم. لا تقلق لذلك.»

رمقها بنظرة غريبة، ثم هز رأسه وهو يقول: «سأراكما، إذاً، في مكان التصوير.» ثم ترك الغرفة.

كان والدها في انتظارها، وأمسك بيدها بينما كان عامل التجميل يصبغ وجهه بشكل جعله يبدو كشبح ناحل شديد الضنى، وضحكت لرؤيته من كل قلبها، وهي تراه يغمز لها بمرح، ضاحكاً، وقد زاد حبها له إذ كان يقوم بذلك لأجلها.

ثم ذهبا إلى البيت. وترددت إيفون أثناء دخوله غرفة نوم والدة حنة مع آدم. وانتظرت بقلب يخفق، وهي تستمع إلى همهمة الرجلين، إلى أن خرج آدم من الغرفة.

ابتسم لها وهو يقول ببساطة: «حسناً، إن الكاميرا ستبدأ التصوير حالما تدخلين أنت الغرفة. إننا لن نتوقف، ولكن، لا تدعي ذلك يسبب لك أي قلق. خذي وقتك ولا تتعجلي ومن ثم، اشرعي في التمثيل ثم انجزي الأمر.»

تساءلت عن هذا التبذير في تكاليف الفيلم إذا كانوا سيصورون دون توقف؟ إن الأخطاء، والعبث والمزاح لا يخلو منها ممثل يومياً. ولكن للكاميرا حرمتها. فهو، إذن، يقدم إليها هبة هائلة بتسامحه معها بهذا الشكل. وبادلته بابتسامة وهي تهمس: «شكراً.»

تمتم وهو يقبل جبينها: «إستعدي.» ثم عاد يدخل الغرفة، ذلك أنه سيكون واقفاً، أثناء التصوير، خلف المصور بحيث لا يراه أحد، ولكن عليها أن تنفيه من ذهنها الآن.

لقد أذهل إيفون مقدار الثقة والاعتبار والحب والاحترام الخالصة التي رأتها من كل شخص، فلم تشأ أن تخيب أملهم فيها. لا يمكن لها أن تسمح بذلك. إن هذا يعني لها الكثير، فهو أبعد كثيراً من مجرد عمل الأفلام ومحاكاة الحياة. إنه لا علاقة له قطعاً بمواصلة المهنة أو الانقطاع عنها.

أغمضت عينيها ثم ركزت أفكارها. لم يكن لديها فكرة عما إذا كانت قادرة على اداء المشهد. كانت تشعر بنفسها عاجزة إزاء هذه التجربة الانسانية العميقة، ولكن، لما لم يكن لديها ما تمنحه لهم مقابل كل تلك العواطف، فلتمنحهم إذاً، حنة.»

سارت نحو الباب، ليصدمها منظر ذلك الجسد الناحل الشاحب العديم الحراك الراقد في السرير. وسمرتها الصدمة في مكانها وقد اهتزت ملامحها.

انبعث صوتها مرتجفاً خائفاً: «أبي؟ أبي؟»

لم يتحرك الجسد، ولم يتنفس. كان الصمت هائلاً. ولم تستطع الاقتراب منه. وأخذت تدور في أنحاء الغرفة وقد طغى منظر عينيها المتسعتين على سائر ملامح وجهها. عينان تعبران عن اليأس والهلع أبلغ تعبير. لقد شعرت بالفشل إذ كان هذا المشهد أقوى من أن تستطيع القيام به. وارتجفت شفتاها ومن ثم شملت الرجفة جسدها بأجمعه.

استندت إلى الجدار وهي تهمس: «لا أستطيع القيام بذلك. لا أدري ماذا يعني ذلك.»

لم يهتز الجسد. كان هذا فوق احتمالها. واندفعت عبر الغرفة نحو سرير والدها تمسك بالأغطية التي تغطي صدره وقد انحنى رأسها فوقه كأية امرأة تصدمها فجأة كارثة مريعة. وتأوهت من أعماق روحها تنشج: «إنني أحبك، يا أبي.»

كانت الكلمات التي فاهت بها أكثر من مجرد كونها خالية من الأخطاء. لقد كانت جديدة تماماً. أسند آدم رأسه إلى الجدار وهو يقول للمصور بشدة: «أوقف التصوير.»

نظر إليه المصور من فوق كتفه، فقد كان مستغرقاً في تلك المشهد المثير للعواطف وهمس غير مصدق: «لماذا؟ إن المشهد رائع...»

ملأت زمجرته جو الغرفة وهو يقول: «قلت لك أوقف التصوير.» وأخذت عينا إيفون الغارقتان في الدمع تطرفان

بسرعة، بينما اندفع أبوها جالساً في السرير ماداً ذراعيه تطوقانها، ومن ثم استدارا، الأب والإبنة، يحدقان في المخرج، بعيون حائرة متسائلة.

نظر آدم إليهما، هما الاثنان، إلى أعينهما القاتمة المتشابهة المختلفة في نفس الوقت. لقد كان ممثلاً حقيقياً بطبيعته حتى ولو لم يقم بالتمثيل. أين كانت حدود مواهبه؟

قال بشفتين متوترتين: «هذا يكفي لهذا اليوم. وسنستعمل ما حصلنا عليه الآن.»

لكنهما لم يكادا يبدآن، فقالت إيفون محتجة: «ولكن ثمة كلاماً أكثر ينبغي أن تقوله حنة.»

رفع قبضته يكاد يضرب المصور، واستدار خارجاً من الغرفة قائلاً: «هذا يكفي، يا إيفون.»

نظرت إيفون إلى أبيها وقد ارتسم الإحباط في عينيها وهي تقول: «ما هو الخطأ الذي اقترفته؟»

قال الأب وهو يضغط برأسها الكستنائي الشعر على كتفه، مغتنماً الفرصة ليمسح مسحوق التجميل عن وجهه. قال: «لا شيء يا عزيزتي. لقد كنت رائعة في دورك هذا.»

لكنها لم تصدقه، فقد كانت تشعر بالخيبة والقلق، فقد سبق واخبرها آدم مرة أنها لا تحسن التمثيل... وعندما بدأت في الإجادة، بتر اداءها. إنها دوماً تتخبط في أجواء الفوضى، عندما يكون هو موجوداً، وتفقد الإرتباط بالموضوع.

قالت بصوت عال وهي تومىء برأسها: «إنه متعب فقط. هذا كل شيء. لقد أجهد نفسه في العمل، وهذا هو السبب. إن كل شخص يأخذ يوم راحة، ولكن آدم لا يرتاح أبداً. إنه

www.lilas.com

يستنزف طاقته بشكل فظيع ولا أدري كيف يستطيع احتمال ذلك.»

ولما لم تسمع جواباً لكلماتها هذه، توقفت وهي تتطلع حولها. لقد كان الإثنان، أبوها والمصور ينظران إليها كما لو كانت قد فقدت عقلها.

من هو الذي كانت تحاول أن تستغفل؟ إنها لم تستغفل سوى نفسها... كعادتها على الدوام.

لقد غادر آدم المكان إلى حيث لا يدري أحد. لقد استقل سيارته مبتعداً، حالما صمم على أن يرتاح كل شخص، بقية هذا اليوم. وكما يقول المثل (غاب الهر، إسرح يا فأر) فقد أعدت لعبة كرة الطاولة، ووضعت خطة لإقامة حفلة في المساء، كما أحضر الشراب.

لقد استمتع الجميع بهذه الفرصة، ما عدا ايفون التي شعرت بالتعب من كل شيء، فذهبت إلى فراشها باكراً، بعد أن صممت، على أن تجتهد في اليوم التالي، في إعطاء آدم الكثير من الجهد في إداء دورها، وحسب ما يتوقعه منها. ذلك أنها لن تستطيع أن ترى الخيبة في عينيه.

فكرت في أن ذلك سيكون سهلاً في اليوم التالي. ولكنها وجدت مشقة بالغة في أن تؤدي أي قسم من التدريب، إذ أن انفعالاتها كانت منحصرة في نفور «محنة» من زوجها حين حاول التقرب منها.

لقد أضاعت، بالإشتراك مع ريتشارد، كل شيء. ذلك أنها وجدت صعوبة في الحفاظ على إمارات الجد على ملامحها، أثناء التدريب إزاء طبيعة ريتشارد المرحة الضاحكة. وكانا يقطعان العمل عدة مرات ليقهقه كل منهما

على تصرفات الآخر. فقد كان الضحك بمثابة دفاع آلي لكليهما، إذ كانت طبيعته، كما كانت طبيعتها هي، تنفر من تمثيل هذا الدور.

كان فهمه للأمور بشكل ممتاز وتفكير لا يخيب. كان تأثيره عليها كبيراً. فقد كانت مشاعره اكثر عمقاً وسمواً مما كان يحسبه الجميع. وفي اليوم التالي، كانت إيفون تجلس خارج عربتها، على كرسي من القماش، تؤرجح ساقها العارية، منتظرة. لقد أمضت صباحاً كسولاً تشرب القهوة وتقرأ في الأوراق، ذلك أنه لم يكن أمامها أي عمل قبل العصر. كانت في ملابس التمثيل وهي عبارة عن ثوب فضفاض باهت اللون مقفل إلى وسطها بأزرار. وكانت قدماها حافيتين.

وقف آدم على بعد حوالي الخمسة أمتار منها، وقد أدار ظهره إليها فبدا كتمثال صلب. وبقي على هذه الحال مدة عشرين دقيقة. كان صبره، أحياناً، مذهلاً. كان يدرس المنظر في انتظار دخول أشعة شمس العصر إلى حظيرة الحيوانات بالدرجة المطلوبة.

تهادى ريتشارد نحوها. كان مظهره البالغ الأناقة والتكلف، قد تغير إلى مظهر مزارع أسمر البشرة. نظرت إليه من أعلى إلى أسفل، وهي تهمهم ساخرة. وابتسم هو دون أن يبدو عليه الإستياء.

وضع يده على كتفها قائلاً: «هل كل شيء على ما يرام؟»

فاومأت برأسها وهي تحك قدميها في التراب مما جعلها أكثر قذارة، وهي تقول: «ستقوم بها كما قلنا تماماً.»

أخيراً، قال آدم فجأة: «ها هي ذي، فليخرج الجميع من

www.lilas.com

الحظيرة ما عدا القائمين بالتصوير. سيبدأ التصوير بعد خمس دقائق.»

تدافع الممثلون خارجين. بينما استدار آدم، وتقدم نحو ريتشارد وإيفون.

راقبته بدقة، فهي لم تعرف قط أين ذهب ومتى عاد. ولم يبد أن فترة الراحة تلك قد أنعشته، ذلك أن مزاجه كان لا يزال على ما كان عليه أمس من توتر وانفعال، مما سبب لها الخوف والارتباك. لقد كانت ملامحه قاسية، والاجهاد قد رسم عليها خطوطاً، كما أن عينيه الرماديتين قد ازدادت نظراتهما بروداً وجموداً.

توقف آدم أمامهما، ثم قال موجهاً حديثه إلى ريتشارد: «إنني لا أريد أية تعرية من الملابس إنك تعرف ما الذي يفترض بك أن تفعل.»

قال ريتشارد بوجه بشوش: «نعم، هذا صحيح.»

انتفضت هي عند ذلك. فنظر إليه آدم بعينين شرستين، وقال له من بين أسنانه مزمجراً: «عاملها بكل احترام، يا ريتشارد.»

بدا الإرتباك على الممثل، وعذرته إيفون. أما آدم فقد بدا عليه وكأنه على وشك أن يمزقه بيديه.

قال ريتشارد مكتئباً: «تباً لهذا يا آدم. أتطلب مني أن أحترمها بينما هي تخشاني في وضح النهار؟»

ضمت هي قبضتها لتضربه على ساقه. وحملق ريتشارد بعينيه وهو يتأوه ألماً بشكل هزلي.

لم يضحك آدم، وقال بهدوء: «هيا إلى مكانيكما.»

أما المفروض أن يحدث الآن فهو: ستكون حنة في

الحظيرة تعتني بالحيوانات عندما يحضر زوجها. وهنا يبدآن بتبادل الحديث بجفاء، ثم يجذبها بعنف مجبراً إياها على الإستلقاء على التبن.

المشهد الأول. يتعثر ريتشارد بسطل اللبن.

قال آدم: «قف. أعد تصوير المشهد.»

المشهد الثاني. اصطدم اصبع قدم إيفون العاري بحجر، فصارت تحجل على قدم واحدة متألمة، في أنحاء الحظيرة.

قال آدم: «كفى. أعد تصوير المشهد.»

المشهد الثالث. إحدى البقرات الحلوب خطر لها أن تطلق غناء طويلاً مفجعاً، وكان أن اقتيدت إلى خارج الحظيرة.

المشهد الرابع. أخذ هدوء آدم البالغ يؤثر على كل شخص هناك. فقد شعرت إيفون باضطراب في أعصابها دون مبرر. وبدأوا من جديد وسار كل شيء، الآن من دون عائق. لقد بدا الآن وكأنهم سيجتازون المشاهد الصعبة. ووجدت إيفون نفسها تتنفس بارتياح عندما نجح ريتشارد في إلقائها فوق التبن، ومن ثم ارتمى فوقها.

إن دورها كان سهلاً. لقد أمسكت بكتفيه، ثم أبعدت ظهرها عنه، وهي تشيح بوجهها المشمئز نحو الكاميرا. وقد انتهى دورها الآن تقريباً.

لكن يا لريتشارد المسكين. فقد وقع في مأزق حقيقي. ذلك أن ثوبها علق تحت يده التي كان يتكىء، بجسمه الضخم، عليها. وعندما تحركت تمزق ثوبها القطني الخفيف من العنق إلى الوسط.

تجمد هو، ونظر الاثنان إلى جسدها. إذ بدت شبه عارية.

www.lilas.com

نظر إليها ريتشارد وهو يعتذر مذعوراً، وابتسمت هي له متسامحة، بينما تقدم آدم يقتلع الممثل من على جسدها، ملقياً به على حافة المربط، ممسكاً إياه من عنقه وهو يصرخ به ثائراً: «تباً لك، ماذا فعلت؟ لقد قلت إنني لا أريد تعرية.»

استلقت إيفون ممددة عند أقدامهما وهي ترفع ناظريها إلى الرجلين وقد أصابتها صدمة عنيفة. كان ريتشارد، بجسمه الضخم، متلوياً كالطفل، تحت قبضة آدم الآخذة بخناقه. وبدا آدم، من كتفيه العريضتين إلى ذراعيه الضخمتين الممتدتين نحو عنق الرجل الآخر المنتفخ، بدا نموذجاً للرجل العدواني الغاشم.

وقفت على قدميها، مجمعة بيد أطراف ثوبها الممزق، بينما مدت يدها الأخرى تمسك بذراع آدم. وشعرت وكأنها تحاول أن تلوي حاجزاً حديدياً وهي تصرخ في وجهه الثائر بحدة: «آدم، كفى. لقد حدث هذا بالصدفة!» وهنا حدث أكثر الأشياء إيلاماً للنفس، شاء سوء حظها أن تشهده. لقد انبثق الادراك ليغطي الثورة العمياء في عيني آدم. لقد عاد الرجل المتمدن إلى الجسد الحيواني... ليشعر بالغثيان مما وجد.

ارتخت اليد التي كانت تقبض على عنق ريتشارد، وانتصب هو واقفاً وقد تصلبت ملامحه وتحجرت نظراته، بينما كان الرجل الآخر يشهق. قال بهدوء: «إنني آسف يا ريتشارد. لا أدري ماذا دهاني. هل أنت بخير؟»

أجاب ريتشارد بصوت متحشرج وهو ينظر إليه شزراً: «إنني بخير تماماً. لا تهتم بذلك.»

مسح آدم وجهه بيد مرتجفة. لقد بلغ كفاحه للتغلب على مشاعره، حداً مريعاً. ثم قال في صوت بالغ التهذيب: «أظن أننا انتهينا من التصوير لهذا النهار. انهوا كل شيء واذهبوا لتناول العشاء أيها السادة.»

ثم استدار ليسير في أشعة الشمس ثم يختفي عن الأنظار.

حملقت إيفون في المكان الذي كان يقف فيه وقد تسمرت في مكانها. إنه لم ينظر إليها قط. ولامس ريتشارد يدها مختبراً ردة فعلها، وهو يقول: «إنني آسف، يا إيفون.»

قالت: «أوه، لا تبدأ أنت أيضاً، أيها الرجل الأحمق. ولكن، هل أنت حقاً بخير؟»

أجاب وهو يتراجع متخبطاً ككرة من المطاط: «بالتأكيد.» ثم لوح بيده دون اهتمام وهو يضحك: «أعني، ان هذا المشهد الذي رأيته، لا يقاس بما كان يحدث لي منذ ثلاث سنوات عندما كنت أقوم بالتمثيل في أفلام عن الحرب في...»

نظرت إليه بذعر مما جعله يتوقف عن متابعة كلامه. وقالت: «لا أفهم السبب في هذا التصرف منه. أظن أننا كنا نقوم بالمشهد بشكل ممتاز إلى أن... ثار طبعه.»

لمعت عينا ريتشارد بشكل هزلي وهو يقترب منها هامساً في أذنها ببطء: «ربما لم يستطع أن يحتمل رؤية رجل آخر يلمس جسدك الجميل.»

بدا على إيفون وكأنها تلقت صفعة. ابتسم الممثل لها وهو يربت على وجنتها الشاحبة، ثم مشى مبتعداً، وهو يصفر بفمه، إلى حيث يتناول عشاءه.

لم تشعر هي كم مضى عليها من الوقت في وقفتها تلك، شاردة الأنظار... وربما كان ذلك إلى الأبد.

www.lilas.com

عندما تحركت أخيراً، خرجت من المكان بهدوء، إلى عربة تغيير الملابس، نزعت ملابس التمثيل جانباً، لتضع على جسدها معطفاً طويلاً، ثم خرجت تسير نحو عربتها الخاصة. وأمكنها أن ترى من نافذتها أنهم بدأوا بتقديم العشاء ولكنها لم تلمح أثراً لآدم.

ما لبثت أن اغتسلت، ثم ارتدت سروالاً قصيراً وقميصاً مقفلاً. وفي الوقت الذي لاحظت بعض التبن لاصقاً بشعرها، كان الإنفعال قد بلغ منها غايته، فأخذت تسرحه بوحشية دون أدنى اعتبار لمظهرها أو لجلدة رأسها. وعندما اندفعت خارجة تهبط السلالم، كانت سرعتها فائقة الحد. واضطربت ساقاها فجأة وهي تصل إلى الفسحة الخالية الممتدة أمام عربة آدم.

لقد تأخرت جداً عن مقابلته في منتصف الطريق. كان عليها أن تقوم بذلك في نفس الليلة التي كان هو فيها، في عربتها. أرجوك أن يكون موجوداً الآن. أرجو أن لا يكون قد ذهب.

لقد أخذ منها التصميم على الذهاب إليه وقتاً طويلاً... طويلاً جداً.

الفصل الثامن

اندفعت إيفون إلى عربة آدم.

لم يكن دخولها هادئاً حاذقاً، إذ ان الباب اندفع إلى الخارج ليعود فينغلق بعنف كأنه يقتلع من مفاصله. ولكنها استطاعت أن توقفه قبل أن يسحقها بالجدار المقابل. ثم وقفت مترددة تحاول أن تستجمع هدوءها.

كان آدم جالساً إلى منضدة صغيرة فوقها أوراق الكمبيوتر، وقد حنى كتفيه العريضتين ووضع رأسه بين يديه. ولم يكلف نفسه عناء رفع ناظريه، بل قال بخشونة: «مهما يكن، دعه حتى الصباح. لا أريد أن أسمع شيئاً عنه.»

تغضن جبينها بأسى. لم يكن من المفروض أن يقول ذلك وهو الذي كان يستمع لكل إنسان. ولكن ما جاءت لأجله لا يحتمل الانتظار. ونظرت إلى يديها لا تدري ما تفعل بهما. وما لبثت أن شبكت أصابعها، ثم فكتها ثانية وهي تقول: «إنك تعلم أن الأمور تتعقد بالنسبة إلي أحياناً.»

قال بصوت منخفض بان فيه العداء: «إيفون. أخرجي من هنا.»

كان في كلامه هذا ما يكفي لكي يدفعها راكضة إلى الخارج. ولكنها قالت باضطراب وقد أحنت رأسها: «كل شيء يبعث على الزمجرة والضيق.»

www.lilas.com

مشت نحو المطبخ الصغير، ثم استدارت لتصطدم بخزانة هناك، واستطردت: «لا أدري تماماً كيف أجتاز كل هذا. إنني أكافح بشدة، لأرى أنني ما زلت في مكاني، ولا شيء حولي سوى هذا...»

لوحت بيديها في الهواء. ولكن الصمت خلفها استمر إلى درجة خالت نفسها تتحدث إلى الخزانة. واستمرت تتحدث إليها قائلة: «لقد جعلت نفسي معتوهة. إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يريد أي إنسان أن يتقرب مني.»

تنهد وهو ينهض لتنزلق الكرسي من تحته، وهو يقول: «آه...»

استدارت عندما سمعت الصوت، وأخذت تحدق في ملامحه الخشنة الكئيبة، وما لبثت ملامحها أن كساها الشحوب والتوسل. وهمست بصوت مختنق: «إنها المرة الأولى التي... حسناً، إنك تدرك ذلك... إنني أعرف أنها كانت غلطة فاحشة مني. لقد تملكني العجز إزاءها. لم أعرف كيف أتصرف. لقد شعرت... فكرت في انه، إذا كان هذا هو الثمن الذي ندفعه لكي يتكاثر جنس البشر، فمن العجيب حقاً أن جنسنا هذا لم ينقرض حتى الآن من دهور عديدة...»

كان قد رفع رأسه لتستقر عيناه عليها وهي تهيم على وجهها على غير هدى، وما لبثت أن فكرت في أنها تبدو في غاية السخافة، فتوقفت عن الكلام متلعثمة، وتجمد ذهنها وهي ترى الدم يتصاعد إلى وجهه والشرر يتطاير من عينيه.

قال متسائلاً: «إيفون؟»

قالت وهي ترتجف: «أوه، النجدة.»

خطا بعنف حول المنضدة فاتحاً ذراعيه، لتندفع بينهما. لم تعرف من هو الذي كان يترنح أثناء هذا العناق، هو أم هي... أم لعلها هي الارض تحركت قليلاً...

ضمها إليه دافناً وجهه في شعرها الكستنائي. فكرت هي في مقدار حماقتها، ذلك لان الارض لم تتحرك، بل هي التي كانت تتحرك بعنف لا إرادي، كانت ترتجف وقد اصطكت أسنانها. لقد شعرت بالحمى تنتابها. والصقيع يجمدها، ولكنها كانت واثقة من مقاومتها للهلاك.

شعرت به يتنفس بعمق، ثم بدا هادئاً، وقد تمالك جأشه. ووضع يده خلف رأسها تحت شعرها، ثم ضغط وجهها على جانب عنقه.

همس وهو يربت على ظهرها بيده الاخرى ليهدىء بذلك من ارتعاشها: «لاباس... إهدأي يا طفلتي. إهدأي.»

أخذت تئن بهلع: «لا أستطيع التوقف. ليس الامر بيدي... إنه...»

تمتم: «إن الامر على ما يرام. إنك هنا الآن. لا بأس.»

تساءلت بينما كانت أصابعها متشبثة بقميصه من الخلف. هل هذا صحيح؟ هل الامر على ما يرام حقاً؟ ولكنها لا تشعر بذلك. لقد شعرت بنفسها تتجزأ أشتاتاً.

همست وهي تدس نفسها به كحيوان صغير يلتمس الدفء: «ربما لم أتصرف كما ينبغي. كان يجب أن أحضر قبل الآن أو لا أحضر على الاطلاق. لا أدري لماذا انتظرت كل هذه المدة الطويلة. إنني أجاهد على الدوام...»

تحرك جسمه الضخم، وشد بيديه بقوة على جسمها حتى

www.lilas.com

كاد أن يحطم عظامها، وهو يقول بخشونة، مصراً على أسنانه: «ها قد بدأت تتندمين.»

صرخت بكل قوة مشاعرها الحائرة: «لا أدري.»

دفع رأسها إلى الخلف محدقاً في عينيها، وقال ببطء: «لقد جئت إلى هنا لأن هذه هي رغبتك. إنك هنا لأنك تريدين أن تكوني هنا. إياك أن تحاولي إقناع نفسك بشيء آخر غير هذا.»

قالت بضعف: «حسناً، نعم ولا.» لم تكن متأكدة من صواب قولها. لقد كان ذلك ينم عن عدم لياقة. ولكن الكلمات كانت تتدفق من فمها لا إرادياً، إذ كان هناك تفسير لتصرفها ذاك. النتيجة التي لم تكن تريد أن تفكر فيها. واستطردت: «لم أكن أحب الشعور بأنني أريد ذلك. هذا هو الموضوع الذي يسبب لي كل هذا القلق والتعقد.»

ردد مستغرباً: «قلق وتعقد؟» وأظلمت عيناه وهو يشعر بصدمة عنيفة في أعماقه إنتفض لها، إذ أحدثت عنده ردة فعل تعسة شعرت هي بها، ليدركها شبه خوف من أن يضربها.

لكنه، بدلاً من ذلك، انحنى ليشدها إلى أحضانه بقوة جعلتها تئن وهي ترتجف مما أظهر ضعفها وتهالكها. وصدمت هي إذ سمعت هذا الأنين يصدر عنها، فسكتت فجأة وهي تغص بريقها.

كان هو يحدث نفسه قائلاً بوحشية وذهن شارد: «لا أظنني كرهت في حياتي شخصاً من قبل، ولا أردت أن أؤذي أحداً كما أشعر نحو الشخص الذي سبب لك ذلك القلق والتعقد... يا إلهي. إنه ليس لديك أية فكرة عن السبب الذي

جعلك تأتين إلى هنا هذه الليلة. أليس كذلك؟ حتى أنك لا تعرفين ماذا كنت تقاومين. فلا يجب إذاً، أن يستغرق تصميمك على المجيء، كل هذا الوقت الطويل. لا يجب أن تصبحي بهذه الحالة. لقد ظننت بأنك إنما كنت تغيظينني فقط. لقد فكرت، مرات لا تحصى أثناء الأسبوع الأخير، بأن أشنقك، لينتهي ذلك في إفراغ غلي في كل شخص آخر بدلاً منك. ذلك أنني كنت أخاف من أنني إذا انفجرت بك فلن أعرف متى أتوقف.»

همست قائلة: «لقد شعرت بأنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء كما ينبغي...»

كانت تتكلم وفي أعماقها صوت ينهاها عن مواصلة الإعتراف، ولكنها لم تكن تستطيع أن تتوقف عن ذلك. ما زالت في حاجة إلى الاستزادة من الاطمئنان. ذلك أن كبرياءها قد أوقعها في حالة من الكرب والضيق إلى درجة أرادت معها أن تتناساه. واستطردت: «لقد بذلت جهدي اليوم في إصلاح الأمر أثناء مشهد الموت ذاك بينك وبين ريتشارد، ولم أعرف ما ينبغي أن أفعل سوى ذلك.»

تنهد بعمق قائلاً وقد بدا عليه الاشمئزاز من نفسه: «لا أدري إلى أين كان سيصل بي الامر لو لم توقفيني عند حدي. إيفون. إقبلي كلامي مرة واحدة دون جدال، لا تعترضي على ما أقوله لك. فقط اسمعيني. لقد أصبح إداؤك في التمثيل مثالياً. لقد تطور بك الامر من حالة إعطائك لا شيء أمام الكاميرا إلى أن تعطين أكثر فأكثر. صار عطاؤك من الكثرة بحيث جعلتني أشعر بالتواضع. لأول مرة في

www.lilas.com

حياتي المهنية، لم أعد أدري ماذا سأفعل بكل التزاماتي. لقد انحرفت مفاهيمي عن مكانها الصحيح، وأصبحت من التوتر بحيث أختلق الأزمات. لقد كنت أقتل ريتشارد هذا النهار لما فعله بالنسبة إليك لأن ذهني إنحرف عن موضوع حنة وزوجها. ونسيت ان الرجل الحقيقي لا يمكنه أن يعاملك بنفس ما يعامل به حنة وزوجها. ولا أدري كيف سيمكنني مواجهة ريتشارد غداً.

رجعت بذاكرتها إلى ما همسه ريتشارد في الحظيرة لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لم تجرؤ على الإعتراف به لآدم. الشيء الوحيد الذي خافت من أن لا يستطيع سماعه.

قالت بدهاء، بدلاً من ذلك: «لقد ضحك ريتشارد مني، وحدثني عن أحداث حربية في أفلام له سابقة حدث له فيها أكثر مما حدث له معك أثناء فقدانك إدراك لأعصابك، ليتركني، بعد ذلك، ويبتعد، وهو يصفر ليتناول عشاءه غير مهتم بشيء في العالم. لو كنت مكانك لما ضيعت وقتي في التألم لجرح إحساسه، ذلك أن هذا الرجل لا يملك أياً منها.»

حبست أنفاسها تنتظر ردة فعله لكلامها، وشعرت أخيراً بالراحة وهي ترى توتره يخف، ليطلق ضحكة قصيرة جافة.

قال: «بمناسبة ذكر العشاء لا بد أن تتناولي شيئاً.»

صرت على أسنانها وهي تفكر كيف يستطيع أن يفكر في الطعام في وقت كهذا... وقالت: «إنني لست جائعة.»

لم يتحرك. وشعرت وكأن آلافاً من الكيلوات الكهربائية تسري في جسده.

قال: «كلا. لا بد أنك جائعة.»

أرجعت رأسها إلى الخلف وهي تنظر في عينيه، ثم قالت بحدة: «لا تحاول أن ترغمني على وضع أي شيء في فمي. سآكل عندما أريد وليس لحظة واحدة قبل ذلك.»

لا بد أنها أساءت معنى كلامه، إذ أنه ابتسم بفتور غير متوقع وهو يقول: «لا بأس، فلنذهب، بدلاً من ذلك، إلى النوم، إذاً.»

تجمد جسدها، ولم تستطع تصديق ما سمعته أذناها، وحدقت فيه، كأرنب وقع في الفخ.

تركها ومشى ببطء نحو الباب بثقله، كان يتحرك متمهلاً شارد الذهن. وطغى عليها شعور بالقلق وخيبة الأمل. مهما كان توقعها لنتيجة حضورها إلى هنا هذه الليلة، فهذا الشيء لم يكن في حسبانها أبداً.

عاد إليها. ولكن التعبير الرافض الذي بدا على وجهها، كان كافياً ليحمله على الابتسام، ووضع ذراعه حول كتفها قائلاً: «هيا بنا.»

حسناً، لقد سبق واختارت وعليها أن تتحمل النتيجة. فإذا لم يحدث أي شيء آخر، فإنها، على الأقل، لن تعود فريسة للهواجس التي تملكتها إلى حد جعلها تأتي إلى هذا المكان الذي تشعر به الآن وكأنه الأبدية. إنه القلق والتعقد ما زالا يحتلان نفسها.

مشت معه ممتثلة، كالدمية، إلى غرفة النوم المظلمة.

كان ثمة ضوء خفيف في الغرفة يتسلل من المطبخ.

www.lilas.com

نظرت بعينيها الكبيرتين إلى شكله غير واضح المعالم، مرهفة الأذنين إلى حفيف ثيابه وهو يسير، واحتكاك أحذيتها بالسجادة.

خلع حذاءه، وحذت هي حذوه، ثم استلقى على السرير وهو يتنهد، ثم أدار وجهه نحوها. وحدقت هي في التألق، غير الواضح، في عينيه.

كانت أضعف من أن تبقى واقفة وسرعان ما تهالكت بجانبه. حاولت تسترخي جاهدة وتتماسك نفسها من أن تعود إلى الارتجاف.

وضع رأسها على كتفه. حاولت أن تقول شيئاً، ولكنها لم تجد سوى الفراغ في رأسها. وابتدأت تتنفس بصعوبة.

احتضنها برقة وهو يهمس قائلاً: «استرخي، فقط، يا طفلتي. إنك لن تذهبي إلى أي مكان.»

استلقت بجانبه وذهنها يدور كالدوامة.

مرت لحظات طويلة صامتة وهي تراه هادئاً حتى ظنت أنه استسلم إلى النوم.

كانت هذه الليلة غير عادية، تماماً كالليالي الماضية. وتساءلت عما إذا كانت تشعر حقاً بخيبة الامل. لكن تفكيرها ذاك كان مغلفاً بشعور من الارتياح غطى على تصوراتها وعواطفها المحمومة.

كان كتفه وسادة عريضة مريحة لرأسها المجهد... وأخذت تستمع إلى خفقات قلبه المنتظمة، وشيئاً فشيئاً، زال توترها وهدأت أعصابها وتملكها الاسترخاء التام.

بعد وقت طويل، تحركت تبغي وضعاً أكثر راحة، متوخية الهدوء والحذر من أن توقظه.

لم يتحرك. حتى أن تنفسه لم يكن يلحظ. لماذا تراها تشعر بمثل تلك الطمأنينة في استلقائها إلى جانبه في السرير؟ وسلمها وجوده بجانبها إلى الهدوء الكامل، وغمر مشاعرها خدر جعل جفنيها يسقطان متثاقلين.

فكرت والنعاس يراودها، في أنها ربما كانت تضايقه في قربها منه بهذا الشكل. وتحركت تريد الابتعاد عنه، ولكن ساقها اصطدمت به.

تنهد وهو يقول بحزم: «لا تتحركي.»

جمدتها الدهشة. ألم يكن نائماً؟ لقد كانت الغرفة مكيفة الهواء ولكنه كان ينضح عرقاً.

همست: «ظننت أنني ربما كنت أضايقك.»

قال باقتضاب: «كلا.» ولكن نبرات صوته كانت تكشف عن معاناة شديدة. وتابع: «إن وضعك هذا مناسب تماماً. إنما لا تتحركي أكثر من ذلك. إتفقنا؟»

تمتمت: «إتفقنا.»

لم تكن قد جربت في حياتها مثل هذا الزخم من المشاعر. اعتدل تنفسها، وانفرجت شفتاها، وابتدأت تستسلم للنعاس.

عندئذ، رفع يده يلامس وجنتها. كانت لمساته رقيقة رائعة، وكانت أصابعه ترتجف.

طفت عليها دهشة وهي غافية، ثم استدارت تقبل أصابعه تلك...

كان شعرها يغطيهما معاً مشكلاً غطاء مخملياً.

www.liilas.com

كان يغطي وجهها مما أراحها، ذلك أن عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع، وشفتيها ملتويتين ببكاء صامت وهي تدس وجهها في كتفه.

همست في أعماق نفسها، لن أدع نفسي تقع في حبه.

الفصل التاسع

لقد حدث لها شيء ما.

كان لا بد من افتراقهما لكي يواجها يوم عمل طويل حارق تحت أشعة الشمس. اغتسلت ايفون وعادت إلى عربتها في خطوات متهادية.

كان الشعور بالضياع الذي غمرها وهي تتركه مستغرقاً بين كومة من الأوراق فوق المنضدة الصغيرة، هذا الشعور كان غريباً بعنفه. لقد قبلته في جبينه، ولامس هو وجنتها بأصابعه الطويلة، ثم عاد إلى عمله. كان هذا شيئاً منطقياً وقد تفهمت في هذا. فقد كان السهر سبباً في تأخره عن انجاز العمل المطلوب في وقته، خاصة في نهار كهذا كان العمل فيه اكثر ازدحاماً من أي يوم آخر.

دخلت عربتها تتهادى بيأس كمن فقد الهدف من وجوده. وتساءلت عما تريده حقاً؟

كانت تشعر بجوع وظمأ لم تشعر بمثلهما في حياتها. كانت تتألم من شعورها بالحاجة!

الحاجة لمَ؟ وأين تجد ما تجهل انها كانت تبحث عنه؟

وضعت رأسها بين يديها. لقد اضاعت نفسها مرة وهي تفتش عن ذاتها. ولقد وجدت ذاتها تلك، دون ريب، ولكن هذا لم يكن كافياً. لم تكن ايفون وحدها لتكفيها...

مرّ اليوم، وبطبيعة الحال، جاء الوقت الذي عادت لتلتقي

www.liilas.com/vb3

فيه بآدم. كل هذا كان متوقعاً وغير قابل للجدل أو النقاش، ولكن الذي أدهشها بشكل لا يطاق، والذي جلب الدوار إلى رأسها، كان مقدار التأثر الغريب الفائق واللهفة العارمة التي ظهرت عليه نحوها، واستجابتها هي إليه.

لقد ذهب منه التوتر، العنف، والقلق الداخلي. لقد أصبح كالصفحة البيضاء النقية الخالية من أية شائبة. لقد سبق وتحطم، ثم عاد للالتحام بقدرة فائقة واحتمال هائل وعزم لا يفل. والآن، بعد ليلة لم يحظ منها سوى بالقليل من النوم، بدا في بهجة كاملة من الشباب والتألق بالحيوية العقلية والجسدية.

حدقت في وجهه الذهبي الوسيم، الذي كان مشرقاً بالضحك لشيء قاله له ريتشارد، وسرت في جسدها رعشة الإنزواء. كان رائعاً. كان تحفة سامية متفوقة. لقد تناسى وغفر الجميع كل العنف والتفجرات الحادة التي سبق وصدرت عنه. ليجتمعوا حوله متزاحمين، يجذبهم التألق المتدفق منه، تواقين إلى الاستمتاع بذلك التوهج والدفء.
ومهما كانت نزواته الداخلية، فقد تغلب عليها. ولكنها هي... هي لها نزواتها ويجب أن تتغلب عليها كذلك، ولكنها كانت تتعثر في طريقها.

لقد أدت دورها في التمثيل طيلة ذلك النهار الذي بدا دون نهاية. كانت «محنة» بتفوق. وعندما كانت خارج التمثيل، كانت تمثل شخصيتها الحقيقية أحسن تمثيل.

في نهاية النهار، انتهى عمل كريستوفر. وأقيمت له حفلة عشاء احتشد فيها جميع العاملين والممثلين في الفيلم يودعونه بأسف وتأثر. ومقابل هذه العواطف الدافئة، أعلن

والدها أنه سيقيم حفلة يلم بها شمل الجميع بعد الانتهاء من الفيلم والعودة إلى لوس انجلوس. وقد قابل الجميع هذه الدعوة بالهتاف والتصفيق.

بعد ذلك، أعطى آدم لايفون مفاتيح سيارته، لتأخذ والدها إلى مطار «فينيكس». أما ما تحدثا به طيلة ساعتين فلم تكن لتتذكره. كل ما عرفته هو أن الرحلة كانت ممتعة، وانها احتضنت أباها مودعة وهي تخبره أنها ستراه بعد أسابيع في لوس انجلوس، ثم أخذت تراقبه وهو يبتعد ليصعد الطائرة وقد شعرت بغصة في حلقها بينما اغرورقت عيناها بالدموع.

كانت الساعة العاشرة مساء، وقد تملكها الإرهاق، وكان آدم قد اقترح أن يؤخر موعد عملها إلى ما قبيل الظهر حتى يمكنها البقاء في مدينة «فينيكس» ولكنها رفضت ذلك.

وصلت عائدة في ساعة ونصف متجاوزة، بذلك، حدود السرعة. لقد كانت سائقة سيارة ماهرة وكان الطريق الرئيسي خالياً تقريباً. ولم يكن ثمة رجل شرطة ليضايقها.

خففت من سرعة السيارة عندما دخلت الطريق الترابي القذر إذ أنها لم تشأ أن تلحق أي ضرر بالسيارة الثمينة، ثم تقدمت ببطء إلى حيث مساكن الفرقة دون صوت مسموع للسيارة تقريباً. وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف وهو وقت متأخر جداً بالنسبة إليها حيث ستبدأ عملها فجر اليوم التالي كالعادة. وكانت المدينة الصغيرة غارقة في الظلام عدا عدة أضواء متفرقة هنا وهناك.

www.lilas.com

تركت سيارة آدم في مكانها المعتاد بعد أن تركت المفاتيح في مكانها. إذ لم يكن ثمة خوف من أن تسرق. ثم سارت نحو عربتها بهدوء كلي محنية الرأس وقد استبد بها الارهاق.

صعدت الدرجات، ثم فتحت الباب لتفاجأ بالنور يسطع في العربة، وآدم جالساً، على اريكتها وقد استغرق في قراءة صحيفة بين يديه.

بعض الأشخاص عندهم مواهب خارقة في العثور على المضايقات عند عدم توقعها مطلقاً.

ارتفع رأسه عند دخولها لتتقابل أعينهما في دهشة مشتركة. وكان هو البادىء في التخلص من تلك الدهشة، إذ قطب حاجبيه وهو يسألها متجاهلاً بعد أن نظر إلى الساعة في معصمه: «ما الذي تفعلينه هنا؟»

نظرت إليه وهو ينهض عن الأريكة متقدماً نحوها، وقالت وهي تلقي بحقيبتها على المنضدة دون مبالاة: «يا له من سؤال غريب. أما كان عليّ أنا أن ألقي هذا السؤال عليك؟»

كان ثائراً بشكل بالغ. فلم تجد القدرة على مواجهته. وقال: «ليس من المفروض أن تصلي إلى هنا قبل نصف ساعة أخرى، على الأقل.»

نظرت إليه شاعرة بالخمول إزاء تهجمه ذاك، ثم قالت وهي تعجب للكلمات التي تتفوه بها بصوت جاف: «إذا شئت، فإنني مستعدة للخروج والعودة ثانياً.»

قال ببطء: «بأية سرعة قدت السيارة يا ايفون؟»

قالت بحدة: «لقد كنت مسرعة ولكنني لم أكن حمقاء. أما سيارتك الثمينة فهي سليمة من كل عطب.»

بدا عليه وكأنها ضربته على معدته، ثم مدّ يديه يضغط على كتفيها ويديرها نحوه مردداً كلامها في لهجة مخيفة بنعومتها المناقضة لتصرفاته الثائرة: «إنني انتظرك هنا، ويفترسني القلق لاجلك خوفاً من أن تسرعي لتصلي مبكرة، وكل ما عندك لتقوليه هو كلماتك الغبية عن سيارتي التافهة؟ هل هذا هو مقدار تفكيرك بي؟»

اتسعت عيناها وكسا الشحوب وجهها. لقد سبق وساورها الندم لما قالته، ولكنها، مع ذلك، صرخت قائلة: «إنك لست وصياً عليّ، وليس عليّ أن اقدم إليك تقريراً عن تصرفاتي. وإذا كنت لا تحب سماع كلماتي الغبية، فلا تهاجمني في اللحظة التي أدخل فيها إلى بيتي الخاص.»

تجمد في مكانه وأظلمت عيناه. وقال ببرود وهو يترك كتفيها مبتعداً: «إن الحق معك بالطبع. ذلك أنك سواء قتلت نفسك أم لا، فإن ذلك ليس من شأني.»

لذعتها سخريته في الأعماق. فأغمضت عينيها بشدة تمنع الدمع من أن يتفجر منهما، للمرة الثانية في ذلك اليوم. ووضعت كفيها على وجهها وهي تقول بضعف: «آدم. إنني متعبة. أنا آسفة إذ تملكك كل هذا القلق مني. وآسفة لأنك لم ترض بالسرعة التي قدت بها السيارة، وآسفة لأنني فقدت أعصابي معك. وأكثر من أي شيء آخر، أنا آسفة إذ كان عليّ أن أشعر بالسعادة لانتظارك لي. والآن، إذا كنت لا تزال في حاجة إلى الشجار، فالأفضل أن تبتعد لأنني لست في مزاج يمكنني معه التوسل إليك لأجل ذلك.»

سكت هو. سكت طويلاً، ثم قال بهدوء: «ما كان عليّ أن أهاجمك بهذا الشكل. كذلك كنت متشوقاً لرؤيتك.»

www.liilas.com

كان صوته العميق من الرقة بحيث دفعها إلى النظر باحدى عينيها بحذر من خلف يدها. وأخذت تفكر في ما قال، ثم أجابت: «ربما ما كان عليّ أن أقود بسرعة ثمانين كيلومتراً في الساعة. ولكنني كنت أريد أن أصل بسرعة.»

وبسرعة الرصاصة، انطلقت من فمه كلمة: «ثمانون؟» فاجفلت. وسكت هو مراجعاً نفسه. ثم صرّ بأسنانه وهو يقول بابتسامة تكشف عن جهده في ضبط النفس: «إنك لا تريدين شجاراً. وأنا لا أريد أن أخرج من هنا غاضباً. فلنحاول إذن شيئاً مختلفاً، وهو أن نصل إلى حل وسط. انك تعرفين ماذا تعني هذه الكلمة. أليس كذلك؟»

أبدت شيئاً من وجهها، الذي كانت تغطيه بيديها، وقد ارتسمت عليه ابتسامة صغيرة. ان عينيه تظهران في منتهى الروعة عندما تكونان رقيقتين باسمتين بهذا الشكل. كما أنها لا تريده أن يخرج غاضباً. إن ذلك سيكون بديلاً شنيعاً للمفاجأة السارة إذ وجدته مستيقظاً ينتظرها. ولكنها كانت حذرة وهي تقول: «إن هذا يعود إلى نوع هذا الحل الوسط الذي يدور في ذهنك.»

لانت ملامح وجهه الصارمة، كما يذوب الثلج عن الجبل، واقترب منها ينزع يديها عن وجهها وهو يمرّر يديه على شعرها يزيحه عن جبينها.

سرى في وجهه وجسده وروحه الدفء ليملأ بذلك الجو حولها.

تمتم وهو يأخذها بين ذراعيه: «أعدك بأن لا أصرخ فيك، بعد الآن، حين تدخلين بيتك الخاص، وان استقبلك،

www.liilas.com

بدلاً من ذلك، بطريقة تبعث السرور في نفسك. والآن، بماذا تعدينني أنت؟»

فهمست: «لا... لا أدري.»

أمسك خصلة من شعرها بأصابعه وكأنه يريد اقتلاعها، وقال ببطء: «عديني أن لا تقودي بسرعة ثمانين، مرة أخرى.»

ضاقت عيناها وهي تقول متهمة: «إنك تحاول السيطرة عليّ مرة أخرى.»

تمتم قائلاً: «نعم يا عزيزتي. عديني بهذا فقط، ولا يهمني أي شيء آخر تتأخرين فيه حتى ولو كان إلى حفلة زفافك... فهذا لا يهمني، فقط لا تسرعي بنفسك إلى القبر. هل اتفقنا؟»

همست: «اتفقنا.»

لقد عبّر عن اهتمامه بطريقة سيئة، ولكنه انسحب بطريقة لبقة. وبالنسبة إليها هي، فقد كانت تسير بسرعة عالية جداً وهذا لن يتكرر أبداً.

حسناً، لقد كانت مخطئة، وهي لا تريد أن ترى الاستياء في عينيه مرة أخرى أو تلك الصدمة على ملامحه عندما تصرخ في وجهه. وبعد، لماذا كل هذا؟

إن هذا لا يهم أبداً. لقد تلاشى كل شيء من نفسها واضحى حالما انحنى عليها يقبلها... وما أجمل هذا الحل الوسط.

الأسابيع الأخيرة.

أصبحت أيام اللقاء معدودة. وكانت ايفون تعلم ذلك جيداً.

لقد عرفت السبب في الحساسية الزائدة التي انفجرت في

نفسها. لقد عرفت أن الآخرين قد رأوا كل شيء، ومع أنهما، هي وآدم، قد سارا في طريق يتراوح بدقة بين الحذر، ورفض اخفاء الأمر. لم يستطيعا استغفال أحد. وقد سرى نبأ علاقتهما بالمخرج، بين الجميع، سريان النار في الهشيم. ولم يتظاهر آدم بالسخط، بل على العكس، أراد أن يظهر الأمر بشكل علني لولا أنها منعته من ذلك بتراجعها وتحويل وجهها عنه بشكل تلقائي عندما يحدث أن يقبلها على وجنتها أمام العموم، وشرود عينيها عندما يحدث أن يربت على يدها أو كتفها.

كانت تدرس تعبيرات وجهه، ولكنه كان يتبع فطرته الشجاعة في ملاحقة النتيجة، في ارغامها على أن تعترف بعلاقتهما تلك. ولكنه عاد فوافق بعد تفكير قصير. لقد توصلا، بصمت، إلى اتفاق نهائي على كل شيء، وقد كوفئا على تصرفهما الحكيم ذاك بتقبل حذر لوضعهما من الآخرين، سرعان ما تدرّج إلى تفهم كامل واحترام كلي وهم يرون النزاهة مستمرة في العمل ليس بوعد شفهي بل بحقيقة واقعة.

كان التحكم في تصرفاتهما أمام الآخرين، معركة يومية مستمرة. وكان تحكمها هي اكبر من تحكمه هو. ذلك أن مشاعرها كانت اعمق. كانت أبعد من مجرد التحفظ الزائف أمام الآخرين يومياً. ولكنها كانت تراقب سلوكها طيلة أربع وعشرين ساعة يومياً. كل الأحاديث كانت ممنوعة، كل حديث عن المستقبل كان يبتر. كل اشارة إلى الحياة خارج منطقتهما الحالية كانت تكبح بيد من حديد. لا يجب أن تأمل بشيء ولا ان تتوق إلى شيء. يجب ألا تفترض أي أمر. إن

العالم يجب أن ينتهي بانتهاء الفيلم. ولا شيء آخر سيستمر.

كانت هذه حدودها. ولأول مرة في حياتها، تتجه نحو هدفها بنظرة سوية واضحة. إن كل ما هو آت، آت، دون أي اعتبار آخر.

الليالي، آه من الليّالي. كان التحفظ بينهما اثناء النهار، بمثابة وقود جاف سرعان ما تندلع فيه النار عندما يعودان معاً عند المساء. كانت الليالي عاصفة. لم تكن تستطيع الرقاد في الليالي، وكانت تتظاهر بتناول الطعام اكراماً له، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يمكنها استغفاله، إذ ان جسدها كان ينحل يوماً بعد يوم. كانت تحترق في أعماقها، وكانت تتابع حياتها العادية بقوة الاستمرار وقوتها الروحية التي لا تهزم.

كان يحاول أحياناً، ان يريحها، بالبقاء بعيداً عنها. اذ انها كانت في حاجة إلى الراحة أكثر منه. وكانت تتبعه باندفاع محموم، وكان هو، بعد عدة محاولات للتحفظ، يتخلى عن تلك العناء. ذلك ان التحفظ اليومي والتحكم الدائم بتصرفاته، يكادان يدفعانه إلى الجنون.

يعيش البشر في عالم كله نهايات. وبينما كان عمل آدم ينتهي عند آخر منظر طبيعي في الفيلم، فان عمل ليفون وبقية الفرقة، قد انتهى ولم يعرض عليها البقاء معه. بقيت الابتسامة والهدوء على وجهها، بينما كان قلبها ينزف دماً.

كانت ليلتهما الأخيرة قبل الإنفصال. أتى آدم على ذكر حفلة والدها بكلام عابر، حيث استمعت إليه ببساطة ومودة.

www.lilas.com

تكلم عن رؤيته لها في لوس انجلوس بعد اسبوع، والذي لم يكن، في الحقيقة، مدة طويلة. استمعت إليه باهتمام، وجاء ذكر تلك الأمسية التي امضياها على الشاطىء يأكلان شطائر اللحمة مما جعل ابتسامة سريعة تمر على فمها... وطيلة الوقت كانت تستمع، وتستمع، وتستمع...

كانت ايفون بين المجموعة الأولى التي كان عليها ان تتوجه إلى المطار، في الصباح التالي. وكان وداعها لآدم بعد تناول الافطار، عادياً مرحاً وقريباً من السيارات التي كانت محملة بالأمتعة وجاهزة للسير.

استدارت لتبتعد عنه بينما ارتسم على ملامح وجهها شيء من التهكم لا يدل على شيء... ذلك ان كثيرين كانوا ينظرون إليهما.

قبضت يد آدم على أعلى ذراعها، ثم أدارها إليه بسرعة جعلت الكون يدور حولها، ليأخذها بين ذراعيه ليطبع على شفتيها قبلة دون خجل من المشاهدين الذين أخذوا يهتفون لهما بدهشة وحبور. ثم أخذ ينظر إلى وجهها المتضرج وعينيها المصعوقتين، بسرور وحشي وهو يقول بلطف: «تذكري هذا.» ثم تركها مبتعداً.

تعثرت في سيرها. ثمة من قبض على ذراعها يدفعها إلى الأمام... من هو؟ لم تكن متأكدة. كل ما كانت تعرفه هو أنها لم تسقط إلى الأرض لأنها وجدت نفسها تجلس إلى جانب سالي في المقعد الخلفي من سيارة جيري بينما السيارة تبتعد بهما.

أخيراً، شهقت سالي بعد أن استطاعت النطق، وهي تقول: «أوه، انني احسدك على تلك الرجل. انه

www.lilas.com

واحد من أكثر الرجال في العالم جاذبية للنساء.»

ابتسمت ايفون بوجه شاحب ظهر عليه الألم والذهول وهي تتمتم: «من فضلك...»

سارعت سالي تهتف وقد أحست ان تطفلها هذا غير مرغوب فيه: «عفواً... انني اعتذر ولكنك تسلّمين بأن وداعه هذا كان عاصفاً. هذا كل شيء.»

قالت ايفون بجمود: «نعم، في الواقع.» ومن ثم اقفلت الموضوع.

كان عليها ان تتحمل التظاهر بالمرح طيلة الطريق الذي لم يكن لينتهي، إلى مطار لوس انجلوس. وعندما لوحت بيدها لزميلاتها مودعة، وغاصت في المقعد الخلفي من السيارة. كان احتمالها قد بلغ النهاية.

وصلت إلى منزل والديها في «بيفرلي هيلز» وكأنها في حلم ضبابي. وكان السائق مبتهجاً بحظه الحسن وللهبة السخية التي منحته. وأصرّ على أن ينقل حقائبها إلى الداخل بنفسه، طالباً التكرم عليه بتوقيعها على الاوتوغراف. منحته التوقيع ولوحت له بيدها مودعة وقد سيطر عليها التعب. واستقبلتها والدتها والخادمة بيتي بسرور ولهفة، ثم اخبراها انها جاءت في الوقت المناسب حيث كان طعام الغداء جاهزاً.

استدارت ايفون لتصعد إلى الجناح الذي كان يخصها دوماً منذ كانت طفلة، وما زال يخصها مهما طالت مدة ابتعادها عنه... وخلعت حذاءها ثم استلقت بثيابها لتستغرق في النوم حتى قبيل ظهر اليوم التالي.

عندما استيقظت أخيراً، كانت لا تزال تحلم. وتناولت

طعاماً كافياً، واغتسلت، ثم مر النهار لتتناول بعد ذلك عشاء هادئاً مع والديها حيث استمعت بصمت، إلى التخطيط للحفلة التي سيقيمانها لمجموعة الممثلين مساء الجمعة. وما لبثت أن ذهبت إلى الفراش مرة أخرى لترقد اثنتي عشرة ساعة كاملة.

أمضت الأيام الثلاثة الأخيرة بخمول تام. كانت الأشياء تحدث حولها، بينما تراقبها هي بحيرة هادئة، وهي تتثاءب دون انقطاع.

كان النشاط والحركة حولها لا ينقطعان. لقد طلب والديها الزهور للحفلة وكذلك الطعام والمشروبات من نفس الشركة التي يتعاملان معها والتي تأبى والدتها تغييرها، كما صقلت أرضية المنزل كلها، ونظفت أحواض السباحة، وكذلك تقرر احضار أفضل الفرق الموسيقية. لقد كانت، وزوجها، يعشقان الحفلات.

أحياناً، كانت تشعر بأنها يجب أن تستيقظ من هذا الخمول الذي لن يؤدي بها إلى شيء، ولكنها لم تستطع إزاءه، شيئاً. ذلك أنها كانت قد مرت بأزمة عاطفية شديدة. لقد كانت في حالة تصادم مستمر مع الواقع، لقد انتهى العالم، ولكن السماء لم تسقط على الأرض، وما زالت الحياة مستمرة على نحو ما، وفي مكان ما...

قبيل غروب شمس الجمعة، جلست ايفون على حافة سريرها. أخذت تراقب تحركات الخادمة بيتي وكأنها تراقب تلفزيون قد خرب ضابط الصوت فيه، ولم تعد ثمة طريقة لضبط تحركاتها تلك. أخذت الخادمة تثرثر سعيدة، وهي تقلب في محتويات خزانة ايفون، عما يمكن أن

ترتديه للحفلة... وادركت ايفون ان وراء هذا الحديث، تدبيراً خاصاً من أمها، لتحثها. لقد ارهقت نفسها في العمل، لترتاح بعد ذلك، عدة أيام، وحان الوقت الآن لكي تهب من مكانها.

لا بد ان آدم قد استقل الطائرة اليوم بعد الظهر، وقد بدأ الضيوف يتوافدون، وهو نفسه سيصل الآن في أي وقت، وأخيراً، قررت ان عليها ان تبدأ بارتداء ثيابها، فأخذت تهتم باقتراحات الخادمة بيتي.

كانت الثياب التي احضرتها معها، لا تصلح للمناسبات، ولكن خزانتها كانت مليئة بالملابس الرائعة التي سبق وارتدتها في مختلف المناسبات والحفلات، وكلها ملابس غالية الثمن مع احذيتها المناسبة، واكثرها لم تستعملها اذ كانت تغير عقلها، في آخر لحظة، لترتدي ثياباً عادية بسيطة.

عادت إلى الموضوع. ماذا تلبس؟ أي ثوب تريد أن يراها آدم به؟ لم تكن تريده أن يرى شيئاً، ذلك لأنها لم تكن تريد أن تراه اطلاقاً، كانت تريد ان تعود إلى النوم. كانت تريد أن يستمر الحلم. كانت لا تزال خائفة، لا تريد ان ترى ماذا سيحدث لها بعد الآن. وشعرت بتردد هائل، ولكن، لا بد من اتخاذ قرار، ذلك أن الخادمة كانت حائرة بين أزياء «جيفينشي» و«شانيل.»

تنهدت ايفون وهي تنزل من السرير.

بعد عشر دقائق، تركت الخادمة خائبة الأمل، وهبطت السلالم بخطوات سريعة خفيفة، وقد ارتدت تنورة قديمة خضراء عليها جاكتة محبوكة ضيقة دون أكمام. كان زياً

www.liilas.com

عادياً متواضعاً بسيطاً، وكان اللون باهتاً هادئاً جعل لونها الذي لوحته الشمس، يبدو نابضاً بالحيوية. وكانت عيناها الداكنتان تتألقان كما أنه أبرز لون شعرها الكستنائي الذي يتماوج باللونين الأحمر والذهبي.

جلست بين مجموعة مماثلة، ذلك أن قلة من المدعوين كانت في ملابس مناسبة، بينهم كان والداها، أما لكثر زملائها فكانوا يرتدون الجينز.

وهكذا كان آدم.

أيقظها رؤيتها له. كان يبدو صلباً بقوامه الفارع وشعره الخمري، وقد وضع يديه على خاصرتيه باهمال وهو يقف مستمعاً إلى شيء تقوله سالي وقد أشرق وجهه بالضحك.

كان، في نظر ليفون، الشخص الوحيد في العالم أجمع. كان بادي الرجولة رائع المظهر، وكان يبتسم بينما عيناه تتألقان بالتسلية. كان يبدو صورة حية للنجاح وعدم القلق.

نظرت إليه وهي تشعر بفراغ في أعماقها بالغ الألم، غير مصدقة أنها كانت يوماً ما، على صلة حميمة بتلك اليدين، والعينين...

كان سيمكث لساعة واحدة فقط. نظر حوله ورآها، فاشرق وجهه، ثم قطع حديثه مع سالي في منتصفه، وتوجه نحوها بخطوات واسعة ليحتضنها بقوة كانت تحطم ضلوعها... هل ترى أن هذا يعني شيئاً؟

قال محدقاً في شعرها، ويتنفس بعمق وكان هذا أول شعر يراه في حياته، قال: «ما أجمل أن أراك مرة أخرى.»

وببساطة طبيعية للغاية، لفت ذراعيها حول وسطه... لقد كان هذا يعني شيئاً هو أيضاً... ولكنها لم تدرك ما هو...

هنا أفسد الأمور كلها، ليلقي بها في غمرة التعاسة، وذلك إذ سمعته يقول بأسف بالغ: «ربما ما كان ينبغي أن أحضر، ولكن كان عليّ أن أراك ولو لمدة قصيرة، عليّ أن أسافر إلى لندن الليلة، يا عزيزتي، فقد حدث شيء عاجل يستدعي ذهابي.»

رددت قائلة وقد تجمدت نظراتها: «شيء عاجل.»

أمسك بوجهها بين راحتيه يمعن فيه النظر، مركزاً نظراته في أعماق عينيها وهو يجيب متمتماً برزانة: «إنها مسألة حياة أو موت كما أظن، ولا بد أن تتضح الأمور بسرعة الآن، على كل حال. وآمل أن أراك قريباً.»

استمعت إليه حيث أنه كان يتحدث عن شيء بالغ الأهمية بالنسبة إليه، ولكنها لم تكن متأكدة من أنها فهمت شيئاً.

ولقد انتهى الوقت القصير الذي قضاه بينهم، لتشعر بانكسار في قلبها، وجمود في عينيها، ولتترك للعودة إلى حلمها المخدر الذي لا ينتهي.

وصل بها التخدير إلى النهاية من العذاب صباح الأحد. حدث ذلك عندما كانت تتناول فنجاناً من القهوة وتتصفح الجريدة بتكاسل.

أحياناً، يعود ماضي الانسان اليه، وأحياناً يعود إلى شخص آخر. يشهد بذلك قلق آدم واضطرابه، وخيبة الأمل التي سببه ذلك لها... كما يشهد على ذلك ردة فعلها وهي تنظر إلى صورة كبيرة باللونين الأبيض والأسود، في قسم الاجتماعيات من الصحيفة، تمثله بين ذراعي تلك المرأة في لندن، والتي سبق وحدثها عنها مرة.

www.liilas.com

الفصل العاشر

نظرة واحدة ألقتها إيفون على الصورة، كانت كافية لتطلق من أعماقها صرخة ألم وهياج لما اكتشفته.

أما ما اكتشفته فهو أن الصدمة التي أصابتها، قد فتحت عينيها على حقيقة شعورها نحو آدم. وكانت حقيقة مخيفة إلى حدٍ هائل... كان شيئاً أكبر بكثير من أي شيء شعرت به من قبل.

لا عجب إذن لإصرارها، منذ البداية، على عدم الرغبة في أن تتغير، وأن لا ترتبط معه بصلة غرامية، وأن لا تقع في حبه. كان عقلها يحذرها من ذلك... حسناً، لو أنها فقط حسبت حساباً لهذا التحذير، ولكن ها هي ذي تسقط على وجهها في غرامه.

يا إلهي، انها تحبه... إنها تحبه. إن لسانها يكرر هذه الكلمة ويكررها في ابتهال مذهول ولا يمل من التكرار. كانت تشعر بذلك بكل أحاسيسها. لقد أدركت أن الصدمة التي أحدثها في نفسها، ليس لها علاقة بأية نزوة عابرة متغيرة، ولكنها كانت شعوراً صلباً صخري الأساس تنامى ببطء. لقد أحبته. إنها غارقة في حبه. ولقد تأصل هذا الحب في أعماق روحها بحيث أن استئصاله الآن سيسبب لها الهلاك.

أما الهياج الذي أصابها، فقد كان ردة فعلها لهذا الإكتشاف. وأخذت تصرّ بأسنانها وقد تملكتها الثورة.

www.liilas.com

وأوضحت ذلك لأسرتها... لهم جميعاً عندما جاءوا يتراكضون بهلع عندما اندفعت صرختها من نوافذ المنزل.

عادت تصرخ ثائرة وهي تنشر الجريدة بيد مهزوزة تحت أنف أبيها: «أنظر إليه. ألا ترى هذا الوغد؟»

ألقى أبوها نظرة على الصورة، ثم نظرة أخرى، ثم نظرة حادة، لتبدو على ملامحه، عند ذاك، جد عميق. ونظرت أمها كذلك، ثم تبادل الإثنان النظرات. أما أخوها فلم يحاول أن يتقدم ليلقي نظرة، ولكنه اختفى حالما رأى أن هذا الحادث لم يصبها بالوهن.

قال أبوها بارتياب: «يا حبيبتي، إنني متأكد من أن المسألة ليست كما تبدو هنا. ولا بد أن آدم عنده تفسير جيد تماماً لهذا. وإن مجرد أن تقفز الصحيفة إلى استنتاج ما، لا يعني أن هذا...»

صرخت فيه بحدة: «لا أريد كلاماً فارغاً، يا كريستوفر.» ثم قذفته بالجريدة على صدره وهي تتابع: «إن الأمر كما يبدو تماماً. إنه ليس مجرد مرح أو عناق نتج عن سوء تفاهم... إنها المرأة التي كان متورطاً معها منذ أعوام. تباً له. أخرجوا من هنا... نعم، إنني بخير... ماذا تظنونني؟»

لم يعرف والداها ما الذي ينبغي عليهما قوله لها. فقاما بما طلبت منهما، وكما كانا يتصرفان كلما كانت تتملكها إحدى حالاتها التي كان يفلت فيها زمام مشاعرها. تركاها بمفردها لتجد لنفسها مخرجاً.

وقفت جامدة وقد تصاعدت ضربات قلبها التي تشبه

ضربات مطرقة القاضي قبل أن يعلن الحكم بالموت. ثم، إذ بها تقفز نحو الجريدة الملقاة على الأرض، فتنشرها، ثم تبدأ بتمزيق الصورة من الجريدة لتحدق فيها بأصابع مرتجفة، في محاولة لرؤية وجهه بشكل أفضل.

سألت الوجه الجامد بصمت وهي جالسة على الأرض: «لماذا، يا آدم؟» لقد أوضح أمام الملأ أنها فتاته. لقد كانت تظن أن المسألة إنما هي علاقة مؤقتة ستنتهيها يوماً ما، ولكنها لم تفعل ذلك ولن تفعله أبداً.

لقد كان قد قال لها إنه سيوضح علاقته بها للجميع، وقبلها أمام شهود كثيرين، ثم همس لها أن تتذكر قبلته تلك. وقد جاء ليراها، أثناء حفلة مساء الجمعة، لفترة قصيرة قائلاً إنه لم يستطع أن يبقى بعيداً عنها... هل كان كل هذا كذباً؟ كلا، بل كانت هي الحقيقة. إنها أكثر نضجاً وحنكة من أن تستغفل وتخدع بالنفاق. وإذا كان ثمة ما يمكنها قوله عن آدم هو أنه ليس من ذلك النوع السطحي من الرجال. إن مظهره البارد يغطي زخماً من ذلك النوع من المشاعر العميقة. آه، لقد كان رجلاً بالغ العمق. كان ملك الشتاء والأسرار والغموض. كان ألغازاً لا تحل. كان خفي النوايا. لقد صدق في كل ما قال، عندما قاله. ولكن، ها هوذا الآن بين ذراعي إمرأة أخرى، امرأة رائعة الجمال.

كان هذا شيئاً بالغ القسوة، بعيداً عن التصديق. وانتصبت على قدميها، ثم قفزت إلى الهاتف حيث قامت بعدة اتصالات، إلى وكيلها، إلى مزرعتها في مونتانا إلى

الإستديو، إلى شركات الطيران، إلى شركة سيارات الأجرة. والجميع كانوا في منتهى التهذيب والتعاون. كان كل شيء سهلاً ميسوراً.

ثم جالت في أنحاء الغرفة كصقر يهم بالطيران، وأعدت نفسها وكل حاجاتها في مدى نصف ساعة، لتهبط بعد ذلك، السلالم حاملة حقيبتها، ثم توجهت إلى والدها.

كان كريستوفر جالساً بهدوء قرب البحيرة وقد نضحت عيناه بالحنان والألم لأجلها وهو يراها تقترب منه.

قالت دون تمهيد: «أريد أن ألجأ إلى مكاني الآمن، وأريد جواز سفري. إن عندي دفتر شيكاتي ولكنني أحتاج إلى شيء من النقود في يدي وسأردها إليك حين أعود.»

قال وهو يقف في الحال: «لا تجعلي الإستياء يدركك، يا إيفون.» وبحب عميق غير محدود، وكرم، ودون أي تحديد أو سؤال، دخل إلى مكتبه، وفتح خزانته وأخرج لها عدة مئات من الدولارات مع جواز السفر الذي كانت تركته عنده منذ عامين عندما هجرت حياتها السابقة، وقال: «إنني لا أريد أن أراك تتنقلين، حاملة مبلغاً كبيراً من النقود. هل هذا يكفي؟ أم أنك تحتاجين مبلغاً أكبر؟»

همست وقد انتابتها غصة وهي تنظر إلى النقود في يدها: «إنه أكثر من الكفاية. إنه دوماً أكثر من الكفاية.»

لم تكن تعني بكلامها مبلغ النقود ذاك، بل كانت تعني حبه لها، وكان هو يدرك ذلك، فأخذ يربت على رأسها قائلاً بهدوء: «بوركت، يا عزيزتي، في كل ما تصممين على عمله.»

www.lilas.com

جاءت الخادمة تخبرها بوصول سيارة الأجرة. وتطلعت إيفون إلى أبيها بعينين لامعتين وهي تقول: «عليّ أن أذهب.»

قال أبوها بحذر دون أن يتحرك أو يحاول منعها لأنه يعلم أن ذلك لا يفيد معها: «أرجوك أن لا تمكثي طويلاً هناك. إننا نشتاق إليك كثيراً أثناء غيابك.»

قالت بعنف وهي تحتضنه بقوة: «إنني دوماً أعود إليكم.»

ذهبت كطير ينطلق من العش، وراقبها أبوها وهي تبتعد، وقلبه عامر بالزهو والرجاء.

حطت الطائرة في مطار «كيتويك» ومن ثم استقلت إيفون سيارة إلى لندن.

كان جرحها أعمق من أن يسمح لها بالنوم أثناء رحلتها الطويلة في الطائرة. وسرعان ما وجدت فندقاً، لتذهب إلى النوم مباشرة حيث استغرقت في نوم عميق حتى المساء.

فتحت عينيها بيقظة كاملة، ثم نهضت من الفراش، اغتسلت بهدوء، ثم تناولت الهاتف لتدير رقماً كان الأستير قد زودها به بسرور، ورد عليها صوت نسائي بلهجة مهذبة: «منزل آدم ريوارك.»

شعرت بالغثيان إذ ترى هذا البرهان الساطع لوجود امرأة هناك. ولكنها قالت بهدوء تام: «هل آدم موجود؟» فسألتها المرأة بلطف: «أيمكنني أن أعرف من المتكلمة؟»

لم يكن لها الخيار، وإلا فإنها لن تصل إلى شيء، فأجابت، شاعرة بالكراهية لذلك الصوت: «إيفون ترنت.»

حالاً، سرى الدفء في صوت المرأة وهي تقول: «أوه، مرحباً يا آنسة ترنت. إنني السيدة ماك فيدان مدبرة منزل آدم. آسفة، إذ أنه خرج منذ برهة قصيرة لتناول العشاء.»

حسناً، عليها أن تكون حذرة الآن. لقد أصبح الحديث مع مدبرة المنزل أكثر سهولة بعد أن تلاشت الكراهية، ولم يعد ثمة ضرورة للعجلة. وقالت: «أوه، ذهب للعشاء؟ إنني آسفة، إذ لم أجده.»

أجابت مدبرة المنزل بسرعة: «هل تريدين أن تتركي له خبراً عن المكان الذي يمكن أن يجدك فيه؟»

تمتمت مفكرة بشيء من التردد، رغم أنها شعرت برغبة في الصراخ. «أترك خبراً لكي يتصل بي؟ ولكن، ألن يتأخر كثيراً في الخارج؟»

قالت المرأة تطمئنها: «أوه، كلا يا آنسة ترنت، إنه ذهب فقط إلى «إمبريال دراغون» في الشارع القريب وسيعود قريباً جداً.»

قالت إيفون برقة، شاعرة بالرضى: «حسناً، أشكرك. لكنني لن أترك له خبراً.»

قالت المرأة بشيء من السرعة ونبرات متلعثمة ذاهلة: «أوه، ولكن يا آنسة ترنت...»

لكن إيفون أقفلت الخط في وجهها.

لقد حصلت على كل المعلومات التي تريد. وأخذت تفكر. إنه يحب المطاعم الجيدة والوجبات الكاملة. ثم ارتدت ملابسها وعقصت شعرها عالياً بعيداً عن وجهها، ثم نزلت إلى ردهة الفندق وطلبت سيارة أجرة.

www.liilas.com/vb3

دخلت إلى المطعم الفخم. ورأتهما... كانت المرأة ترتدي ثوباً من طراز «شانيل» حريرياً أسود، مزيناً بالفراء. وكان هو يسير منتصباً، تحيط به هالة من الجلال. ويقودها إلى المائدة. كانت أنثى يتجاوز طولها الستة أقدام مع كعب حذائها العالي. تبدو وكأنها ملكة بوجهها الذي لا يمكن أن ينساه المرء، والذي ينشر الدمار أنىّ سارت.

ثم رأتهما، آدم وتلك المرأة، يجلسان إلى مائدة لشخصين قامت في زاوية مضاءة. ولم تُصنع إيفون أكثر من نظرة ألقتها على المرأة الجميلة. وغاصت في الكرسي الذي أمسكه لها النادل. كانت بأجمعها، بكل اتساع عينيها وروحها القاتمتين، مركزة على شخص آدم.

كان يبدو غريباً بثيابه المتكلفة، مخيفاً في بذلته السوداء وقميصه الأبيض، وقد غاب من مظهره كل سحره وجاذبيته. كان وجهه الوسيم خشناً حاداً مرعباً، وعيناه الرماديتان فاترتين خامدتين مما جعلتا شعره القاتم الملتهب يتحول إلى جليد.

لقد اكتشفت الأمر، وثارت ثائرتها، ثم جاءت إلى المعركة، عابرة آلاف الأميال، تسوقها روحها المتأججة. والآن، وقد أصبحت هنا، وأخذت نفسها المضطربة تتأمل في ملك الشتاء، ليواجهها لغزه الأكبر، إذا بها تغرق في الصمت.

لم تفعل شيئاً، ولم تدرك ما الذي ينبغي عليها عمله. وضعت ساقاً على ساق وأخذت تملأ عينيها من منظرهما وهما يتحدثان معاً. متقبلة طعنة الخنجر

تلك في قلبها، محاولة أن تقتل الألم بالهدوء وجلب الصفاء إلى نفسها.

لم يكن عليها أن تقوم بأي شيء. ذلك أن العنف الذي كان يجتاح نفسها حين دخولها المطعم، قد استحال الآن إلى قنبلة موقوتة تئز ببطء لتقوم بدلاً منها، بكل شيء. وذلك حين واجهها جوّ المكان الصامت المعتم، والحديث المختصر الهادىء، لحظة دخولها. وأخذت تراقب موجة انفعالاتها التي كانت تمتد إلى ذينك الشخصين اللذين ظهر عليهما الضيق وأخذا ينظران حولهما.

نظر ملك الشتاء الخامد إليها، وسرعان ما اشتعل بالحياة.

إضطرم وجهه، وتوهجت نظراته وقد تدفقت منها المشاعر. وأتى بحركة مفاجئة ثم شحب وجهه. وسمعت هي صوت اصطدام الكأس الذي كان يحمله بيده بينما كان الشراب ينساب منه على الغطاء الأبيض.

عند ذلك، عرفت جواب اللغز، إذ أن الصورة التي رأتها في الجريدة، كانت صادقة. لقد غير فهمها لهذا، كل شيء.

اتسعت عيناها إذ أدركت ما الذي فعل، وما اكتشفت، بذلك التيار الكهربائي الذي كان يسري بينهما والذي كان يزداد وضوحاً وقوة، إلى أن قفزت من أمام مائدتها وقد أطلقت صرخة متكهربة، ثم استدارت لتهرب من ذلك الموقف. لقد شعرت به يحذرها من أنه إنما يقوم بمناورة للمرأة التي معه، والتي ابتسمت وهي تومىء برأسها متفهمة. وسرعان ما قفز بين الموائد، خارجاً.

www.lilas.com

كان الهرب هو كل ما كانت إيفون تفكر فيه، ونجحت بذلك تماماً. وخرجت من المطعم إلى الشارع المعتم بأضوائه الصفراء لتستدير حول منعطف هناك. لم تكن تعرف الشارع لكنها كانت تتصرف بوحي من غريزتها، يدفعها إلى ذلك الرغبة في الهرب والإبتعاد. ولكنها لم تستطع أن تهرب مما عرفته وأدركته.

لقد كان الأمر كله إخماداً لها. لقد جمدها هو عن كل حركة. لقد قهرتها دقة وتعقد الموقف. وتلك النظرة الدافئة الرقيقة الودود، التي لا تحوي أثراً للدهشة، التي رمقتها بها المرأة، وللسهولة التي حصلت فيها على عنوانه ورقم هاتفه في لندن من الأستوديو. وسرعة وذهول وتلعثم مديرة منزله وهي تحاول جاهدة أن تخبرها بشيء ما... الصورة التي نشرت بسرعة في لوس أنجلوس لإمتاع قراء الصحيفة. لقد خططت يد قوية قادرة، لكل شيء بدقة وخبرة ولمسات ماهرة... وكل شيء كان في النهاية محبوكاً متشابكاً ليعيدها إليه.

لقد كان يحاول، أحياناً، أن يأتي على ذكر المستقبل، حيث كانا في أريزونا، ولكنها كانت ترفض الخوض في ذلك. كانت قد وضعت نفسها في حصن دفاعي.

وضع نفسه خارجاً ليغزوها. إنه لم يحاول أن يرغمها على الخروج بالقوة، ولكنه، وبطريقة ماهرة ذكية، أقنعها أن تفتح أبواب حصنها ذاك، لتخرج إليه. وغطت فمها المرتجف بيدها وتنهدت.

سمعت خطوات تركض خلفها ثم تتوقف فجأة، لتسمع صوت آدم يزعق باسمها بعنف الصقر.

كان في صوته ذاك من رنة الإنتظار بعد الخوف من فقدانها، والهلع والنشوة، كان في كل ذلك ما أوقفها عن متابعة الهرب لتتسمر في الأرض.

وقفت وهي ترتعش وقد أدارت له ظهرها وصرخت: «ماذا فعلت؟»

لتفجر هو بالقول بصوت أجش يحوي توسلاً ممزوجاً بالسيطرة: «يا إلهي... لا تذهبي.»

أوشكت أن تسقط على ركبتيها. وتابع هو: «أكاد أموت عندما تتركينني. ولا أدري كم مرة سأتمكن من تحامل نفسي بعد الآن. ما الذي تعلمينه يا إيفون؟ ما الذي تعلمينه الآن؟»

صرخت وقد مدت ذراعيها إلى جانبيها وضمت قبضتيها بعنف: «لا أريد. لا أريد أن أنحني. سأبقى منتصبة القامة. أريد أن أهرب. هل رأيت كيف أهرب؟»

قال وقد امتزج اليأس في صوته بالقسوة: «إنك لا تريدين. ولكنك فعلتها في كل مرة. لقد أرغمتك ولكنك قاومتني. سألتك، فأعطيتني. دعوتك، فجئت. تركتك، فتبعتني. لقد أحببت... إنني أحب... إنني أحبك يا إيفون، وسأحبك يا إيفون. سأحبك دوماً وأبداً. فلا تقتليني مع هذا الحب.»

شهقت باكية وجرت الدموع على وجنتيها وهي تقول: «لقد تحايلت علي.» وما لبث رأسها الشامخ المتكبر أن انحنى. وهمست: «لقد انتصرت.»

لعله كان قريباً جداً منها، لأنها سمعت صراعاً شديداً في تنفسه كمن يحتضر. لا بد أنه كان من القرب منها بحيث كان

www.lilas.com

في استطاعته أن يلمس كتفها المرتجف. ولكنه لم يفعل.

قال: «إنني لم انتصر. لقد خسرت كل شيء بالنسبة إليك. إنك لا تدركين مبلغ اكتمال انتصارك عليّ. إنني لا أعرف كيف أعطيك ما أنا بحاجة إلى أن أعطيك إياه، لأنك ترفضين أخذه.»

لفت هي ذراعيها حول نفسها تحاول أن تجد العزاء. وقالت متأملة: «إذا أنا استدرت إليك، فإنك ستتوارى. وإذا أتيت إليك، فإنك سترحل مرة أخرى.»

كان الصمت ثقيلاً، خطراً، ثم قال محذراً بلهجة متعبة: «إن لم تستديري إليّ، فإنني سأتوارى. وإذا لم تأت إليّ، فإنني سأرحل. إنني لست مصنوعاً من الحجر. إنني ببساطة لا أملك معيناً لا ينضب من الصبر والجلد. لقد حملتني فوق ما أطيق، وأنا مرتبط بك، وغارق في حبك. فإذا أنت أسأت معاملتي، فإن في استطاعتي أن أتعلم كيف أكرهك.»

قالت بصوت باك: «سيكتب علينا الافتراق على الدوام. أنت في عملك في الأفلام ومنزلك المتنقل بين مختلف البلدان، وأنا... أنا في هذه الفجوة الكبيرة في داخلي التي لا أنفك أسقط فيها، يا إلهي.»

تمتم بألم: «هل نسيت الحل الوسط بهذه السرعة؟ إنني ذاهب الآن وعليك ان تشاوري عقلك وتختاري.»

أغمضت عينيها. إنها تسمع الآن قلبها وهو يتصدع.

جاءها صوته الرقيق العنيد من وراء ظهرها يقول: «إنني ذاهب الآن. وداعاً، يا إيفون.»

هنا، حدث أكثر الأشياء عجباً. لقد صرخت باسمه بمنتهى

العذاب واليأس من أعماق روحها، ثم استسلمت إلى قلبها. ولم تهرب. لقد انحنت وكادت تسقط إلى الأرض.. كانت تسقط إلى أعمق نقطة يمكنها الوصول إليها، لتقدم الطاعة إلى ملك الشتاء الذي أطلق إليها هذا التحذير. ولكنه كان كاذباً لأنه لم يبتعد عنها خطوة واحدة.

أمسك بها قبل أن تقع. وجعلتها ذراعاه اللتان التفتا حولها تحتضنانها بشدة، جعلتها تشهق وقد ارتجف جسدها، ثم تستدير لكي تتعلق بعنقه.

احتضنها بكل قوته. ولم يكتف بهذا، بل فتح سترته وجعلها داخلها. وكان هذا أفضل حالياً. فقد كان كافياً ليسمع الواحد منهما دقات قلب الآخر. ويمر بيده على شعرها وهو يشعر بانتصار خفي إزاء جسدها المرتعش، وببهجة عنيفة لرؤيتها تنزل بنفسها إلى هذا الوضع الذي لا يستطيع أن ينقذها منه غيره هو.

قال ببطء وهو يلامس وجنتيها: «إنك لا تتعلمين بسرعة أيتها المرأة.»

قالت وهي تتنهد: «إنني لا أتعلم بسرعة، لأن ما أتعلمه سيكون للأبد.» وأبعدته عنها لتنظر إليه قائلة: «إنني أحبك ياآدم. ها انني قلتها الآن، ولن أقولها مرة أخرى.»

تردد وهو يقول: «لن تقوليها؟»

لقد أبطل كل تحدياتها له، كما أنها نبذت كل ما كانت تخشى أن تخسره. وقالت بسرعة: «بل سأقولها كل يوم آلاف المرات. وسيصيبك الغثيان لكثرة سماعها. سأقولها وأقولها إلى أن تطلب مني أن أقفل فمي. إنني أعرف أنك ستفعل ذلك.»

www.lilas.com

مضى يضحك لدرجة أنه وضع رأسه على كتفها. إنها الآن، على الأقل، تعلم أنه يضحك، راجية أن يكون ذلك حقاً.

تملكها القلق، في الحقيقة، من أن هذا لم يكن ضحكاً. فتراجعت إلى الخلف لتنظر إلى وجهه، لترى أن عينيه الجميلتين كانتا غارقتين بالدموع ورالقصتين من البهجة.

لقد أصبح مشرقاً بالحيوية والشعور، خلافاً لما كان عليه كلياً، من خمود الشتاء وذلك قبل أن تتخلص هي نهائياً من خوفها المزمن، إذ أنها قد اكتسبت درساً جديداً، وهو ادراكها بأنها إذا كانت قد حملته على التواضع لحبه لها، فقد رفعت من شأنه من ناحية أخرى. لقد حملته فوق طاقته، وفوق صبره واحتماله، وهذا جعل شخصيته أقوى ليصبح أكثر رجولة مما كان.

لقد كان لديها سلطة رائعة جربتها، إذ تهمس إليه: «أحبك.»

نظرت إلى وجهه الذي أشرق بالبهجة وهو يرد عليها قائلاً: «إن كل مرة تخبرينني فيها بذلك، هي هبة لا تثمن. إنني أراها جديدة في كل مرة أسمعها منك. إنني لن أمل مطلقاً من سماعها، ولن أكف عن إخبارك كم أحبك.»

نظر حوله في الشارع الخالي ثم أخذ بيدها ومضى مسرعاً بها. وكانت هي تنظر إليه متسائلة بفزع. وكانت تتعثر على الرصيف، وعبس وهو يستحثها قائلاً: «هيا، أسرعي.» وشهقت هي محتجة. فتوقف واستدار إليها ثم

قبلها وهو يرتجف، ويفك شعرها المعقوص عالياً ليتناثر حول وجهها إلى ما تحت كتفيها.

نظر إليها وهو يقول: «سآخذك إلى منزلي. لقد كانت أياماً طويلة شاقة جافة من دونك.»

لقد أدركت الآن ما يريد. فأومأت برأسها وهي تسرع لخطى معه. ولما كان بيته قريباً، فإنه لم يرجع إلى المطعم، وبينما كان يجرها إلى ممر الحديقة ويفتح الباب، كانت هي تلهث.

كانت إيفون تصرخ وهي ترى شبح امرأة متوسطة السن تسير نحوهما في الممر المظلم بعد إذ سمعت صوت المفتاح في القفل.

كانت تقول: «إنني آسفة يا سيد ديوارك. لقد اتصلت الآنسة ترنت كما كنت أنت تأمل أن تفعل. وقد استطعت إخبارها بمكان وجودك، ولكنها لم تترك لك أي خبر...»

لم تكن مدبرة المنزل قد رأت إيفون بعد. ووقفت إيفون خلفه متخفية، بينما قال آدم بلهجة صافية: «شكراً لك لاهتمامك يا سيدة ماك فيدان.» وضغطت أصابعه على أصابع إيفون محذراً، وهو يتابع «والآن، يمكنك الذهاب إلى منزلك.»

قالت إيفون وهي تبرز من وراء آدم: «مرحى يا سيدة ماك فيدان.»

شهقت المرأة مسرورة بينما تابعت إيفون: «ما أجمل أن أراك بعد أن سبق وتحدثنا معاً. عمتِ مساء.»

تألقت عينا مدبرة المنزل وهي تقول: «هل أنت، في

www.liilas.com

الواقع هنا في بريطانيا؟ إن رؤيتك أسعدتني جداً فإنني أعشق أفلامك و...»

انفجر آدم، وأخذ يدفع مديرة المنزل بالقوة إلى الباب الأمامي وهو يتكلم طيلة الوقت.

طغى تهذيبه غير العادي على دهشتها، وهو يقترح عليها أن تعتبر نهار الغد عطلة لها.

ما أن أخرجها من الباب حتى أقفله بالمفتاح. وأسندت إيفون رأسها المصدوع إلى الجدار وأخذت تضحك وتضحك حتى انهمرت دموعها.

الحقيقة، والمعرفة النهائية.

قالت الزوجة لزوجها، بلهجة مسالمة: «لقد أخبرتك بذلك.»

قال الزوج لزوجته التي كانت تشذّب الأزهار: «إنك تعتبرين نفسك دوماً على حق. وهذا ليس عدلاً. اعترفي بذلك... كان عندك بعض الشك هناك لفترة قصيرة.»

كانت الزوجة سيدة متسلطة ساحرة تضع قبعة على رأسها وقفازات في يديها لتحمي بشرتها الرقيقة من الشمس. منحت زوجها ابتسامة متحفظة. وكان ذلك يغضبه على الدوام.

قالت الزوجة وهي تعمل في الأزهار قصاً وتشذيباً: «إنني لا أشك في شيء أبداً.»

كانت تعمل بحيوية فائقة... ثم رجعت إلى الخلف خطوات لتتأمل جمال التصميم الذي صنعت ثم تابعت: «لقد رأيت منذ البداية أن آدم وإيفون هما متلائمان تماماً. هي تشعل فيه الحرارة، وهو يخرجها من

عزلتها. إن كلاً منهما سيجن بالآخر مدى حياتهما وسيعشقان كل دقيقة منها.»

فكر الزوج لحظة، ثم أومأ برأسه مستسلماً. وقال: «إنها تظنني الفاعل.» ثم أخذ يضحك وهو يتابع، «إنها تظن أنني المخطط لكل شيء. وجميل أن أراني أحظى بكل هذا الإحترام.»

ضربته الزوجة على ذراعه لتذكره بمركزه، وهي تقول بصوت عذب ناعم: «لا تدع هذه الفكرة تتملك رأسك.»

فكر الزوج لحظة، ثم قال: «ألن تخبريها أبداً أن كل ذلك كان فكرتك أنت؟»

ضحكت الزوجة وقالت: «كلا، و إلاّ خسرت الفائدة من هذا السر. والآن، كيف لنا أن نقنعهما بأن يبدأا بإنجاب الأطفال؟ إنني لا أستطيع الإنتظار لكي أصبح جدة، أكثر من ذلك.»

قال الزوج العاشق لزوجته: «إنني أحبك.»

كانت هي مشغولة عنه، ولكنها قالت بسعادة وهي تقص الوردة: «إنني أعلم ذلك.»

كانت جائزة «الأوسكار» التالية، هي الأولى، خلال ست سنوات، التي خسرها المخرج الشهير آدم ريبوارك. ولكنه انتصر في شيء آخر. فقد كان عنده وعند زوجته، موعد في مستشفى الولادة.

كانت غرفة المخاض عصرية ذات جو منزلي.

كان فيها تليفزيون ليتسليا بمراقبته. وكانت تضحك بسرور لكل ترشيح للجائزة ينالها فيلمها. ثم تأوهت لنوبة ألم فاجأتها، فقال لها آدم أن صوتها يشبه صوت نوع

www.lilas.com

غريب من البغال، فأخذت تهدده بأن تطلب طرده من المكان.

ازدادت آلام المخاض، بحيث لم تتمكن معه إيفون من أن تستمتع بمنظر فوزها بالأوسكار على القيام بدور «حنة» في الفيلم. وعندما كانوا يقودونها على النقّالة إلى غرفة الولادة، كانت تصيح ثائرة: «لقد غيرت رأيي. تباً لذلك. أريد مخدراً للألم. أضربوني على رأسي، أرجوكم.»

كان آدم موزعاً بين القلق، والضحك، والشفقة الفائقة، والندم دون سبب... كل هذه المشاعر المختلطة كانت من الصعوبة بمكان، أن يحتملها رجل. ولكنه على كل حال، كان عند مستوى الحدث بشكل يدعو إلى الإعجاب.

كان هدوؤه وثباته، هما المرساة التي استندت إليها أثناء معاناتها. لقد صرت بأسنانها، ونضح جسدها عرقاً، وصرخت ثائرة بأنها ستصبح أسمن امرأة في العالم وأنه سيكرهها لذلك. وأخذ هو يهدهدها كما لو كانت طفلة ويسندها من كتفيها، ويقول إنها أجمل امرأة رآها في العالم، وأنه يحبها إلى درجة الجنون، وأنهما يجب أن لا يقتربا من بعضهما البعض مرة أخرى. وعند هذه الجملة الأخيرة، كانت بطنها المنتفخة تنفجر بالضحك، وما لبث ألم المخاض أن فاجأها بأعنف ما يكون فأطلقت صرخة عالية...

ولدت طفلة ضئيلة مضحكة الشكل تبدو على وجهها دهشة كبيرة سرعان ما شعرت هي نحوها بالحب إلى درجة انفجرت بالدموع وهي تنظر إليها.

حالاً، بدأت الطفلة تبكي بصوت منسجم رقيق، وأخذتها الممرضة حيث مسحت جسدها ووزنتها

وقاست طولها بسرعة فائقة، لتضعها، بعد ذلك بين ذراعي الأب.

تنقلت أنظار الأب بين ابنته التي كانت تصرخ بالبكاء، وبين زوجته الباكية هي الأخرى، أوه، يا إلهي... لقد أصبح عنده اثنتان من هذا الجنس.

لكنه كان يعلم بالتأكيد أنه أسعد رجل في العالم.

تمت

www.liilas.com/vb3

مع تحيات منتدي
ليلاس
اختكم أمل